عبد الرحمن البزاز

القومية العربية تحريرها وتعريفها



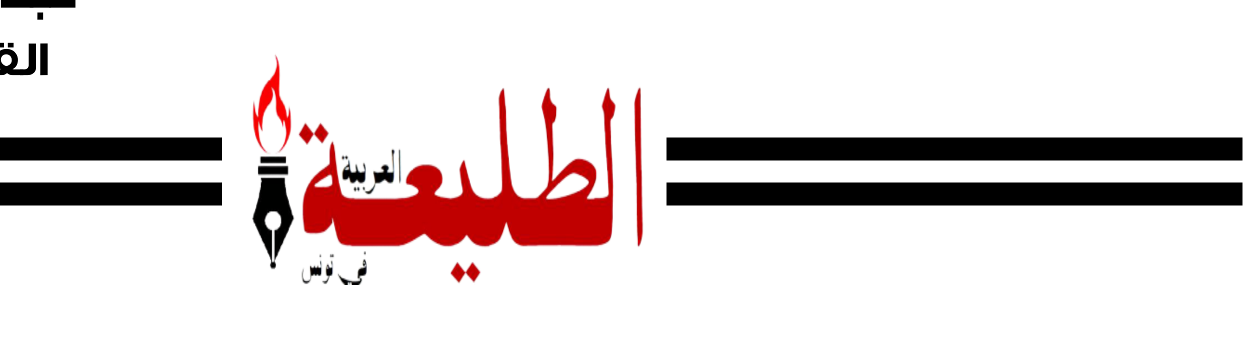


منشورات الطليعة تونس 2001

القومية العربية : تحريرها وتعريفها

عبد الرحمن البزاز

القاهرة ـ 1964



تحرير القومية

لو رجعنا إلى أي معجم من المعاجم العربية لنرى ما تعني كلمة تحرير (حـرر) لوجدنا أن من بـين المعاني العـديـدة التي يشملهـا هـذا اللفظ الـواحـد، العتق، والتخصيص، والاصلاح، والتحديد، والضبط، والتدقيق، والتخليص من الشوائب.

إننا نريد ـ في مستهل دراستنا هذه، وقبل أن نتقدم في شرح النظريات والآراء المختلفة حـول القوميـة وماهيتهـا ـ أن نفك اسـارها من كثـير من الأصفاد التي قيـدتها بسبب التبـاس «القومية» مع كثير من الأفكـار والعقائـد والمذاهب التي خـالطتهـا، أو التي يوحي بهـا أحيانـاً تداعي المعاني عند ذكر هـذا المصطلح بـالذات. وإننـا نود أن نخلّص القـومية من الشـوائب العديدة التي خالطتها لنجلوها على حقيقتها، ولنصـل، بعد ذلـك، إلى ضبط هذا المصـطلح بقدر ما يتيسر لنا من دقة، وبالحد الذي تسعفنا به طبيعة أمثال هذه المصـطلحات الحية ذاتها من ضبط. وهذا كله لكي نخلص من بعد، إلى التعريف الذي نرتضيه للقومية من بـين هذه التعاريف العديدة التي سنشير إليها.

وإنه لمن الحق علينا أن نعترف ـ بادىء ذي بـدء ـ بأن القـومية مصـطلح غامض بعض الشيء، وأن معنـاها متـطور متجـدد، وأنها ـ في الأزمـان المختلفـة ـ قـد استعملت في معـانٍ كثيرة، فأسهم ذلـك في اختلاط مفهـومها المجـرد بكثير من تلك المعـاني المتبـاينـة في أزمـانها وظروفها ودلالاتها.

ومـع ذلك، فليس في اختـلاف الناس حـول تعـريف أي مصـطلح، وليس في عـدم اتفاقهم على تحديد أي معنى من المعاني، دليل انعدامه حتى يصح اتخاذ ذلك وسيلة للتشكيك

في وجود القومية، كما يفعل بعض النقاد. فالناس، منذ أقدم الأزمان إلى يوم الناس هذا، يختلفون في تعريف «العدل»، و«الحق»، مثلاً، وهما من أهم المصطلحات القانونية وأكثرها تردداً على ألسنة رجال القانون من قضاة ومحامين وغيرهم؛ والناس يختلفون أشد الاختلاف في تحديد معنى «الجمال» ولكنهم يحسونه في كل شيء جميل، وفي كل فكرة جميلة. وهل لعاقل أن ينكر مصطلحات «العدل» و«الحق» و«الجمال»، مثلاً، لمجرد اختلاف الناس في تحديد معانيها، وتباين ألفاظهم وصيغهم في التعبير عنها؟

وفوق ذلك، فهناك في هذا الكون أشياء، وفكر، ومصطلحات، وأحاسيس، لا تقبل الحد، وتستعصي على من يريد أن يضع لها تعريفاً جامعاً مانعاً، كما يقول المناطقة، وهي قائمة لا مجال للشك فيها، أو التشكيك حولها.

يقول الأستاذان أرنولد فان جينيت، ورينه جوهانه في كتابهما **هذه هي القومية** «ان الحقيقة الاجتماعية المقصودة عادة بكلمة «قومية»، معقدة مركّبة من ناحيتي الشكل والمحتوى، قابلة للتحول والتغير بتغير الزمان والمكان حتى اننا لا نملك إلى الآن تعريفاً للقومية يخلو من الغموض والاضطراب، ولكن هذا ليس مجالاً للدهش ولا للشكوى، فإن كل تعريف للظاهرات الحية، أو ما يشارك في خصائص الحياة، هو على هذه الحالة من الصعوبة. وعلماء الحياة يعجزون عن تعريف النوع، على نحو يرضي العلم، واللغويون لا يستطيعون أن يميزوا بين لغة ولهجة، وبين لسان وعامية، كما يرغبون ويرغب لهم العلم. ويجد العلماء، في سائر الفروع الصعوبات نفسها، للتمييز بين التقاليد والأساطير وبين أعمال السحر والأديان، وبين الأجناس وفروعها»[1].

دواعي الإبهام

إن المبادىء والمصطلحات التي تختلط بالقومية عديدة، والفِكَر التي ترتبط بها وتسبب اللبس حول حقيقة معناها متنوعة، ولكني أحسب أن تحديد علاقة القومية ذاتها ببعض تلك المصطلحات والأفكار والمبادىء الأخرى يسهم جدياً في تحرير هذا المصطلح، ويساعد على إبراز القومية العربية على صورتها الحقة التي نريدها، مبرأة من الهنات، طليقة من القيود، خالية من الشوائب، وهذا بدوره يمهد ـ في الوقت ذاته ـ لقبول تعريف نصطفيه لها آخر الأمر.

ومن الحق علينا أن نعترف بأن لاختلاف النظريات العلمية حول «ماهية القومية» شأناً كبيراً في إشاعة بعض المفاهيم المتعارضة والمضطربة أحياناً حول القومية بصورة عامة، وحول

(١) انظر: أرنولد فان جينيت [وآخرون]، **هذه هي القومية**، ترجمة محمد عيتاني (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٣)، ص ٤.

«القومية العربية» بصورة خاصة. فهل القومية مجرد انتساب إلى جنس معين؟ أو هي نتيجة التكلم بلغة واحدة؟ أو هي حصيلة الاشتراك بالشعور والأحاسيس التي يوحي بها التاريخ العام المشترك؟ أو هي مجرد المشيئة والارادة الحرة للتعايش المعشري أو هي نتيجة الرغبة في التعايش الاقتصادي المشترك؟ أو هي متأتية من الاشتراك بالدين أو المذهب؟ أو هي نتاج وحدة الثقافة؟ أو هي أثر من آثار وحدة الأرض والوطن؟ أو هي حصيلة المصير والكفاح المشترك؟ أو هي نتيجة التعرض لأخطار متشابهة وتحديات متماثلة؟ أو هي نتيجة هذا كله، أو بعض هذا؟

والقومية العربية اليوم أهم ما يطبع حياتنا في النواحي السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، كما يؤيد ذلك الواقع المحسوس. وهي، من دون ريب، العنصر الفعال والمحرك المركزي الحيوي، الذي يدفع المجتمع العربي في شتى الميادين والاتجاهات، ولذلك صار لزاماً على كل فرد أن يعي القومية وعياً كاملاً، وأن يتفهم حقيقتها تفهماً دقيقاً واضحاً.

وطبيعي أن من أهم الواجبات الملقاة على عواتق المفكرين في البلدان العربية أن يسعوا حثيثاً في تحديد القومية، وتبيان خصائصها، وتحديد أهدافها بدقة ووضوح. وتفرض مصلحتنا القومية العليا علينا أن تكون ماهية القومية العربية واضحة في كل عقل، وأهدافها حبيبة إلى كل قلب، ومقوماتها الأساسية متفق عليها بحيث تصبح في عداد البديهيات التي لا يماري فيها أحد.

وأحسب أن البلدان العربية عموماً، والجمهورية العربية المتحدة خصوصاً - وقد أصبحت مركز الثقل في الكيان العربي، وصارت موطن الايحاء الفكري للقومية العربية في الأمة العربية كلها - مطالبة بأن تجد في هذا المضمار كل الجد، وأن تسعى كل السعي، لإشاعة المفاهيم الصحيحة الواضحة حول القومية، لتزيل - ما وجدت سبيلاً إلى ذلك - كل ما يعترض طريقها، وكل ما يؤدي إلى إشاعة مفاهيم خاطئة تسيء إلى الفكرة القومية وتسيء إلى الدعوة القومية، وتضر آخر الأمر أبلغ الضرر بالدولة التي أقامت سياستها، وشيدت كيانها، على أساس القومية العربية ذاتها.

ولا شك أن معهد الدراسات العربية العالية مطالَب، قبل غيره، بأن يضع للقومية العربية - من النواحي الفكرية والعلمية والعقائدية - قواعدها المستقرة، ويوضح أصولها الأساسية بحيث تصبح آراؤه في هذا الشأن بمثابة «الرأي المفتى به» الذي يرجع إليه الجميع لتحري أقوم المذاهب التي يؤمَن معها العثار، ويصح فيها الاقتداء. وأحسب أن هذا المعنى كان واضحاً في أذهان الذين فكروا في إنشاء هذا المعهد، وعملوا مخلصين على إبراز حقيقة قائمة في هذا الوجود. وقمين بالمعهد، إذن، أن يأخذ نفسه بهذا الأمر، ويعدّ ذاته لأداء هذه المهمة الجليلة ذات الأثر المهم في حياتنا اليوم وبعد اليوم، تمام الإعداد.

وإنه لمما يدعو للغبطة أن تتنبه وزارة التعليم العالي في الجمهورية العربية المتحدة إلى خطورة القومية العربية فتقرّر تدريس مادة «المجتمع العربي» في جميع كلياتها الجامعية ومعاهدها، أي جعل هذه الدراسة إلزامية على الطلاب عموماً، سواء كانت دراستهم علمية أو أدبية أو فنية، وسواء كانوا مثلاً طلّاباً في كلية الطب أو الهندسة أو الآداب أو الحقوق أو أية كلية أو معهد آخر. إن مادة المجتمع العربي ستكون بمثابة التمهيد الطبيعي لتفهم القومية العربية باعتبارها الفكرة الأساسية الفعالة التي تسيطر على مجتمعنا اليوم. والبلاد العربية عموماً مطالبة أن تنحو هذا النحو، لتعد الأجيال الصاعدة اعداداً كاملاً، وتبصرهم بحقيقة وجودهم، وحقيقة ما يهدفون إليه في هذه الحياة.

إن دراسة المجتمع العربي - إذا فُهمت كما يجب أن تُفهم - ستكون جدّ نافعة في صهر المفاهيم القومية، وتحديد معانيها، وتبديد كثير من الغيوم التي تتضافر - اليوم خاصة - عوامل كثيرة، داخلية وخارجية، على تجمعها، ولو بصورة مصطنعة، في بعض الأجواء والبيئات، في هذا الجزء أو ذاك، من وطننا العربي الكبير الواحد[٢].

ولنعد إلى تحديد مسائل الإبهام التي يمكننا إجمال القول فيها في النقاط التالية على الوجه الآتي:

١ - القومية و«القوم»

وأول المفاهيم الخاطئة، وأكثرها شيوعاً، وأعظمها يسراً في إيجاد اللبس والإبهام، هو المزج بين لفظ «قوم» ومصطلح «قومية». وبعبارة أوضح وأدق ان التداعي الذهني المتحصل من مصطلح قومية عادة، وارتباطه بلفظ قوم أو أقوام، قد أساء إلى الفكرة القومية ذاتها، وجعلها غامضة بعض الشيء. وإني لأدرك، بطبيعة الحال، أن مصطلح القومية لغة مشتق في صيغته المحدثة في العربية من لفظ قوم، ولكن هذا الاشتقاق، بل هذا المصطلح، حديث،

---

(٢) وإنه لمن المؤسف حقاً أن نسجل أن تدريس هذه المادة في الجامعات كان مضطرباً أشد الاضطراب، ومتبايناً كل التباين. ولقد ساهمت في تدريس هذه المادة في العام الدراسي الماضي في جامعة القاهرة، وقرأت معظم ما كتبه الأساتذة والمحاضرون حول مادة المجتمع العربي. إن الغاية الأساسية من تدريس هذه المادة لم تتحقق بعد، ولا بد من مزيد من الجهد الخالص، ومزيد من التنسيق والتوضيح، وتحديد ما يراد منها لكي تتحقق الغاية التي من أجلها تقرر تدريس مادة المجتمع العربي في المعاهد والكليات.

ولقد عقد في الاسكندرية في الصيف الماضي مؤتمر حضره بعض رجال التربية وفريق من أساتذة هذه المعاهد وبعض المسؤولين، كما كان قد عقد في الصيف الذي سبقه مؤتمر آخر للغاية نفسها. ولقد عرضت فيهما بعض الآراء القيمة، ووضعت بعض التوصيات المفيدة. ولكن العبرة، كل العبرة، بالتطبيق، والعبرة قبل ذلك بإيجاد الاساتذة الواعين قومياً، المؤمنين برسالتهم، الحريصين على بذل الجهود المخلصة لتحقيق الهدف السامي الذي من أجله تقرر تدريس هذه المادة في كل المعاهد والكليات.

على حين أن لفظ قوم عريق. إننا نعلم أن الأقوام المختلفة قد وجدت في هذه الدنيا منذ آلاف السنين، وأقام بعضها حضارات شتى على سطح المعمورة، فالمصريون القدماء، والبابليون، والآشوريون، والعبرانيون، والفينيقيون، والإغريق، والرومان، والعرب، وكثير غيرهم من الأقوام، أقاموا، على مدى العصور، دولاً مختلفة، وحضارات متعددة. ولكن القومية مع ذلك ـ من حيث هي مصطلح سياسي ـ حديثة، كما سنرى، على الرغم من عراقة الأقوام ولفظ قوم ذاته.

إن لفظ قومية لغةً مصدر صناعي، وهذه صيغة قياسية واردة في اللغة العربية اضطررنا إلى استعمالها بعد تأثرنا بالفكر الغربي، واضطررنا الى ترجمة بعض المصطلحات التي وضعها الغربيون في لغاتهم. ولعل من الطريف أن نعلم أن لفظ قوم، من حيث الأساس، مأخوذ من القيام. فكان القوم في جملتهم هم الجماعة الذين يقومون قومة واحدة للقتال، أو عند اشتداد الخطوب، ولذلك فقد أطلق هذا اللفظ أولاً على الرجال باعتبارهم هم الذين يقومون للقتال والخصومات دون النساء. ولقد ورد في الشعر الجاهلي بهذا المعنى، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

وما أدري ولست إخال أدري　　　أقوم آل حصن أم نساء

كما وردت بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن﴾[٣]. ثم توسّع في استعمال هذا اللفظ بحيث شمل الرجال والنساء فيما بعد، وصار يستعمل بالمعنى الذي نفهمه اليوم بحيث أصبح لفظ قوم يعني جماعة الانسان وأنصاره، ومن ذلك قول الشاعر:

قومي هم قتلوا أميمَ أخي　　　فإذا رميت يصيبني سهمي

كما وردت بهذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد﴾[٤]. ﴿وكذّب به قومك﴾[٥]. وواضح أن لفظ قوم في هاتين الآيتين يشمل الرجال والنساء على حد سواء.

إن تاريخ القومية ـ بالمعنى العلمي الدقيق الذي نستعمله اليوم، وهو الذي نقصده في دراستنا هذه ـ لا يكاد يرقى إلى ما قبل القرن التاسع عشر الميلادي إلا قليلاً. وبعبارة أدق، إن القومية نمت في أوروبا، وترعرعت منذ أواخر القرن الثامن عشر، وإن أخذ الشعور القومي، أو الطابع القومي، في انكلترا شكلاً معيناً منذ القرن السابع عشر. تقول دائرة المعارف البريطانية[٦] في هذا الصدد:

---

(٣) القرآن الكريم، «سورة الحجرات،» الآية ١١.

(٤) المصدر نفسه، «سورة غافر،» الآية ٣٨.

(٥) المصدر نفسه، «سورة الأنعام،» الآية ٦٦.

(٦) انظر: «Nationalism,» in: *Encyclopaedia Britannica.*

«إن التعلق بأرض الوطن، وتقاليد الأجداد، والسلطات الإقليمية القائمة، قد عرف عواطف شائعة ـ بقوى متفاوتة ـ خلال التاريخ الانساني كله، ولكن «القومية» لم تبدأ إلا خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر لكي تصبح عاطفة مسلّماً بها ذات أثر فعال في الحياة الخاصة والعامة للأفراد، ولكي تصير من أقوى العوامل الحاسمة ـ إن لم تكن أقواها على الاطلاق ـ في التاريخ».

وجلي من هذا أن القومية بشكلها المتبلور الواضح المحدد، لم تظهر الى الوجود إلا بعد الثورتين الأمريكية والفرنسية. إنها، في واقع الحال، نتيجة أحداث كبرى هزت العالم الغربي هزاً عنيفاً، كـ «الإصلاح الديني» الذي حطم وحدة الكنيسة، وأوجب ترجمة الكتب المقدسة الى اللغات الحية[٧]، وكـ «الانبعاث» أو «الإحياء» الذي قضى على الأفكار القديمة التي تؤمن بالكنيسة الواحدة، والامبراطور الواحد، والذي قضى، قبل ذلك، على كثير من الأفكار والمبادىء التي كانت تسيطر على المجتمع الغربي وتحول دون وعيه ذاتية نفسه وتفكيره فيها. إن القومية ما كان من المعقول أن تظهر في أوروبا قبل أن يتحطم مبدأ «الحق المقدس للملوك»، وقبل أن تشيع مبادىء الثورة الفرنسية الحرة التي كانت تنادي بـ «الأخوة والعدالة والمساواة»، والتي أكدت حق الشعوب في «تقرير مصيرها». إن الأفكار الحرة التي دعا إليها «جان جاك روسو»[٨] والتي أعلنها «بيان الاستقلال الأمريكي» بتأثير جيفرسون وحقوق الانسان والمواطن التي نادت بها الثورة الفرنسية هي التي ثبّتت مبدأ تقرير المصير للشعوب، ومبدأ تقرير المصير هو المظهر الحقيقي للفكرة القومية بمعنى أن الجماعات المختلفة صار من حقها أن تختار بنفسها حاكمها. فولاؤها ليس محتماً عليها بسبب عقيدة دينية، أو سلطان امبراطور يفرض وجوده عليها. ومعنى هذا، بعبارة ثانية، أن الكتل البشرية صارت تفكر في ماهيتها، وتبحث عن الرباط الذي يجمع بينها، وهذا قد أدى إلى هذا التساؤل في كل جماعة من الناس، من نحن؟... ولم يعد الجواب: نحن رعايا الامبراطور الفلاني، أو نحن الخاضعين للكنيسة الفلانية، بل صار الجواب الصريح نحن ألمان، أو بولونيون أو طليان، أو فرنسيون، أو يونان، وما إلى ذلك من القوميات العديدة التي ازدهرت في القرن التاسع عشر.

فجلي من هذا أن القومية حديثة، وإنها قد طبعت القرن التاسع عشر بطابعها القوي، ولذا سمّي ذلك القرن في الغرب قرن القوميات[٩]. وفيه برزت معظم القوميات الحديثة التي نعرفها اليوم كالقومية الألمانية، والقومية الإيطالية، والقومية اليونانية، وغيرها.

---

(٧) يعتبر الفيلسوف الألماني فختة ترجمة كتابي العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والانجيل) أول خطوة مهمة في التمهيد للقومية الألمانية. وسنشير إلى آرائه في ما بعد بصورة مفصلة.

(٨) يعتبر جان جاك روسو الأب الروحي للثورة الفرنسية وكتابه العقد الاجتماعي (Contrat Social) بمثابة انجيل الثورة. وفيه أكد القيم الحرة ومسؤولية الحاكمين في رعاية مصالح الشعوب بسبب هذا العقد الاجتماعي، وهذا أدى إلى نمو الوعي القومي في الجماعات البشرية.

(٩) لمعرفة كيف نشأت القوميات، انظر: ساطع الحصري [أبو خلدون]، محاضرات في نشوء الفكرة القومية.

وبالنسبة إلينا نحن العرب إن القومية ـ بمعناها العلمي الدقيق ـ مصطلح حديث أيضاً، وإن كنا قد وجدنا بوصفنا قوماً أو أمة منذ عشرات القرون. كما أن لقوميتنا العربية الحديثة جذورها التاريخية العريقة، ولكن الخلط بين الجذور التاريخية لقوميتنا، وبين القومية ذاتها، قد أسهم في تصوير القومية على غير وجهها الصحيح. كما أن الخلط بين القومية من حيث هي، وبين أوزار بعض الأقوام العريقة، وتحميل القومية سيئات تلك الأقوام، خطأ فاحش يجب أن نتنبّه، كل التنبه، إليه.

٢ ـ القومية والوطنية

وثمة التباس آخر حري بنا أن نتنبه إليه، وهو الخلط بين مصطلحي «قومية» و«وطنية»، واستعمالهما مترادفين تجوزاً أحياناً..

إن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة أرض تُعرف باسم الوطن، وهي قد تعني أحياناً الاهتمام بشؤون ذلك الوطن، والتعلق به بالعواطف والأحاسيس، باعتباره التربة التي تضم رفاة الأجداد والآباء. إن الكلمة الأجنبية للوطنية (Patriotism) تعني هذا المعنى بجلاء، بحيث يصح أن نقول بأن الوطنية هي حب أرضِ الآباء، على حين أن القومية تعني، أولاً وقبل كل شيء، ارتباط الفرد بجماعة من الناس تعرف باسم الأمة، والحرص على مصالح هذه الجماعة، والعمل من أجلها. وعلى ذلك فالشعور القومي ينمّي الوطنية بهذا المعنى، أي يشيع بين الأفراد حب البلاد والتعلق بها. ولكن القومية أوسع من الوطنية كثيراً، وفيها من الشمول والتجريد «والعقائدية» ما ليس في الوطنية.

ثم إن القومية قد تكون مجرَّدة عن الوطن، كما كان الحال عند الصهاينة قبل أن يقيموا (كيانهم المزعوم) في اسرائيل. وقد تشمل القومية أوطاناً مجزأة ومتعددة، فالقومي الألماني، مثلاً، يرى في ألمانيا الغربية، وألمانيا الشرقية، والنمسا، والجزء الذي ضمته روسيا إليها من بروسيا، أجزاء متفرقة من وطن قومي واحد. وقد تنمّي القومية أحاسيس لولاءات متعددة أو متنافرة أحياناً، فالقومي العربي في العراق أو المغرب يحب العراق أو المغرب باعتباره وطنه الصغير، ويحب، في الوقت ذاته، كل الأقطار العربية باعتبار أن الوطن العربي وطن عربي كبير واحد، واليهودي الصهيوني المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية قد لا يحب الولايات المتحدة الأمريكية، «وطنه الرسمي»، وقد يشعر أن ولاءه الأول يجب أن يكون لإسرائيل، «وطنه القومي» الذي يتعلق فيه بروحه وأحاسيسه ومشاعره.

صحيح أن الوطنية والقومية تكادان تكونان مترادفتين في نتائجهما النهائية بالنسبة إلى كثير من الشعوب الأوروبية اليوم، فالوطنية الفرنسية ـ بهذا المعنى ـ كالقومية الفرنسية، كما أن الوطنية الايطالية أو السويدية كالقومية الايطالية والسويدية. وقد لا يبقى فرق كبير بين لفظي

الشعب الفرنسي، أو الأمة الفرنسية، أو الشعب الايطالي والأمة الايطالية، أو الشعب السويدي والأمة السويدية، وذلك لأن فرنسا أصبحت أمة واحدة منذ مدة طويلة، وأن ايطاليا قد حققت وحدتها في القرن التاسع عشر، وأن السويد أمة تتطابق فيها الحدود القومية والوطنية. ولكن الأمم التي لم يتم تحررها بعد، ولم يتم توحدها، كالأمة العربية، يختلف فيها مصطلحا قومية ووطنية اختلافاً بيّناً. وأكثر من ذلك، إن في تأكيد الوطنية، والتشديد عليها، وإثارتها بصورة ضيقة وعنيفة، وسيلة لمعاكسة العقيدة القومية، بل وطعنها أحياناً. ويكفينا أن نتذكر - في هذا الصدد - حرص بعض الأقطار العربية اليوم على أوطانها الخاصة، ومحاولة تأييد حدودها القائمة في الوقت الحاضر، على الرغم من كونها مصطنعة، وحرصها على جعل القومية قاصرة على أوطانها السياسية الضيقة، للتدليل على هذا الاتجاه الخطير.

وقد يسعفنا عرض الأشكال الأربعة الآتية كثيراً في تبيان الفرق بين الوطنية والقومية أحياناً(١٠).

١ - فقد تؤلف الأمة الواحدة دولة مستقلة واحدة، لها خصائص الدولة المستقلة من جيش، وعَلَم، ووطن محدود، عندئذ تكون الوطنية والقومية في هذه الدولة متطابقة تمام الانطباق، إذ يكون الوطن مجموع الأراضي التي تعيش عليها تلك الأمة وتقوم فيها دولة تمثّل سيادتها، ومثال ذلك السويد وايطاليا.

٢ - قد تؤلف الأمة الواحدة دولتين أو عدة دول في آن واحد، وفي مثل هذه الحالة تكون الوطنية معارضة للقومية لأن الوطنية تعني التعلق بالوطن السياسي، بينما تعني القومية الاهتمام بجميع أبناء الأمة المنقسمة سياسياً إلى وحدات مختلفة، ومثال ذلك ألمانيا اليوم. فالقومية الألمانية تفرض على الألماني أن يعد الألمان حيثما يكونون أبناء قومه، يرتبط بهم ارتباطاً روحياً، بينما وطنية النمساوي تفرض عليه حب النمسا، ووطنية الألماني في ألمانيا الاتحادية تفرض عليه حب ألمانيا الغربية فقط. والبلدان العربية اليوم في مثل حال ألمانيا، بل أشد منها فرقة. فالوطنية اللبنانية تفرض على اللبناني حب لبنان، والوطنية اليمنية تفرض على اليمني حب اليمن، بينما تفرض القومية العربية على العربي حب العرب أجمعين، سواء كانوا في لبنان أو تونس أو اليمن، أو في أية بقعة من بقاع الوطن الكبير.

٣ - قد تكون الأمة الواحدة محرومة من دولة خاصة بها، وقد تكون تابعة لدولة أجنبية. إن الوطنية تفرض على أبناء الوطن الواحد حب أرض الوطن، على حين أن الشعور القومي ينزع بأفراد الأمة الى التخلص من نير حاكميها، ويدفعهم إلى إقامة دولتهم الخاصة بهم، وهكذا يصبح الشعور القومي معارضاً للشعور الوطني، وأضيق منه مدى، لأنه يختص

---

(١٠) لقد أسهب في توضيح هذا الأمر الاستاذ ساطع الحصري، وضرب الأمثلة العملية في تبيانه في المبحث التمهيدي من كتابه: آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ط ٣ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٧)، ويحسن بالقارىء الرجوع خاصة إلى ص ٧ - ١٣ منه.

بجزء من ساكني أرض الوطن الكبير، كما أنه يدعو إلى الانفصال والكره، على حين يتطلب الشعور الوطني الولاء. وأحسن مثال على ذلك بلغاريا حينما كانت خاضعة للدولة العثمانية. فالقومية البلغارية أضيق وأخص من الوطنية العثمانية التي كانت تشمل أقواماً عديدة، وهي معارضة لها.

٤ ـ وقد تكون الأمة الواحدة أحياناً، على الرغم من عدم حصولها على دولة قومية، مجزأة وخاضعة لدول شتى. وأحسن مثال على ذلك هو بولونيا التي بقيت فترة طويلة من الزمن مجزأة الأوصال، يخضع فريق من البولونيين الى روسيا، ويخضع فريق آخر إلى بروسيا، ويخضع فريق ثالث إلى الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية. إن الشعور الوطني يفرض على البولوني الخاضع لقيصر روسيا أن يحب وطنه، أي البلاد التي تخضع لسيطرة القيصر، كما تفرض الوطنية على البولوني الخاضع لبروسيا مثل هذا الولاء تجاه مملكة آل هابسبورغ، وهكذا الحال بالنسبة إلى من كان خاضعاً للامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، على حين أن القومية البولونية كانت تفرض على البولوني أن يحب أبناء قومه المشتتين بين جاراتها الثلاث المغتصبات لأرض الوطن والمقسمات للأمة، وأن ينظر الى تلك الأوطان نظرة عداء وخصومة، وهو يفكر في وطنه الخاص الذي يجمع أبناء قومه.

ومثال على هذه الحالة ما كان عليه العرب في القرن الماضي، فقد كانت غالبيتهم العظمى أجزاء من الوطن العثماني، وكان فريق منهم يُعتبر جزءاً من الوطن الفرنسي أو خاضعاً للحماية الفرنسية، وكان جزء آخر مستعمرات بريطانية أو خاضعاً لحمايتها، وجزء ثالث يخضع للنفوذ الأسباني على شكل من الأشكال، على حين بقيت أجزاء أخرى تتمتع بنوع من أنواع السيادة. فكانت الوطنية تفرض على الوطني في العراق أن يحب الدولة العثمانية بكل أجزائها، بما في ذلك الأناضول، مثلاً، على حين أن مراكش، أو على الأدقّ بلاد المغرب كانت تعتبر أرضاً خارجة عن وطنه، ولا تفرض عليه وطنيته أن يتعلق بها. ولكن القومية العربية تفرض على العراقي أن يعدّ المغربي والعدني والنجدي إخوته، إخوته الذين يرتبط بهم بأوثق رباط. وديارهم جميعاً وطنه القومي الواحد، على حين أن الأناضول بلاد غريبة، والأتراك غرباء عنه.

وأحسب أنه صار من الجلي الواضح أن الوطنية لا تغني عن القومية بالنسبة إلى أمتنا العربية خاصة. فما لم يتم تطابق وطننا القومي مع أوطاننا السياسية المبعثرة اليوم، وما لم تتحقق المواطنة «العامة المشتركة» لكل أبناء العروبة، فسيبقى مصطلحا «قومية» و«وطنية» منفصلين أحدهما عن الآخر، بل متعارضين أحياناً. إن الخلط بينهما يضر بقوميتنا العربية. ويتحتم علينا ألا نكتفي بصفة وطني أو بترديد كلمة «وطنية» وحدها، بل لا بد من قرن ذلك بصفة قومي، وتأكيد مصطلح «قومية»، خاصة في هذه المرحلة الحاسمة من مراحل تطورنا

الفكري والسياسي. إن الاكتفاء بالوطنية، واعتبارها تغني عن القومية، خطأ فاحش يضرّ بقوميتنا الهادفة الى جمع الشمل، والعناية بكل الأمة العربية، وبكل أوطاننا السياسية اليوم التي هي وطننا الكبير الواحد، وطننا الذي نريد أن نقيمه في دنيانا حقيقة وواقعاً، كما هو في قلوبنا وأذهاننا روح ومثال.

٣ ـ القومية و«التابعية»

وهناك التباس حقيقي بين مصطلحي «قومية» و«تابعية». ويمكننا لسهولة البحث، أن نفرّق بينهما بصورة أولية على الشكل الآتي: إن الانتساب إلى القومية هو انتساب عقائدي، بينما يكون الانتساب في التابعية مجرد انتساب قانوني لا علاقة له بالعقيدة والشعور، وقد يحمل عدداً من مختلفي القوميات جنسية، أوتابعية واحدة. كذلك ليس كل الذين لهم جنسية واحدة، أو تابعية معينة، قوميين. فالمنتسبون الى الدولة العثمانية، مثلاً، «أي حاملو تابعيتها» قد كانوا من أقوام مختلفة، فمنهم العربي، ومنهم التركي، ومنهم الكردي، ومنهم اليوناني، ومنهم البلغاري، وهناك كثير غيرهم. وكذلك حاملو التابعية (أو الجنسية) النمساوية في العهد الامبراطوري قد يكون أحدهم ألمانياً، أو مجرياً (هنغارياً)، أو تشيكياً، أو بولونياً، أو قد يكون من غير أولئك من القوميات العديدة الأخرى التي كانت تخضع لتلك الدولة. ومصدر هذا التباين بين القومية والتابعية هو عدم الأخذ بمبدأ تقرير المصير في ما مضى، أي أن أقواماً كثيرة كانت تخضع، رغم ارادتها، لسيطرة دولة، أو حكم ملك أو امبراطور، وتصبح ـ من الناحية القانونية ـ حاملة جنسية تلك الدولة أو الامبراطورية. ومن الملاحظ أن كثيراً من الأقوام قد استطاعت، في أوروبا، أن تثبت وجودها القومي، وتتكتل أو (تتجزأ) من امبراطورية كبيرة، على أساس قومي، فألمانيا وإيطاليا مثالان للنوع الأول، واليونان والبلغار مثالان للنوع الثاني. ولذلك اعتبر القرن التاسع عشر عصر القوميات في أوروبا، إذ فيه برزت القومية بروزاً تاماً، وكانت القوة المحركة التي غيرت معالم القارة الأوروبية تغييراً كلياً.

ومع ذلك، فليست كل دول أوروبا اليوم قائمة على أساس قومي واضح، فسويسرا، مثلاً، دولة اتحادية[11] فرضت عليها أوضاع اجتماعية وتاريخية وطبيعية تكوين كيان سياسي عام مشترك تطور تدريجياً إلى أن أخذ شكله الذي نعرفه اليوم. ومعنى هذا أن ليس هناك قومية سويسرية، كما يتخيل البعض من الكتّاب بل هناك شعب سويسري، وهناك ـ بالنتيجة ـ تابعية أو جنسية سويسرية. فكل السويسريين، مهما اختلفت أقوامهم، شعب سويسري واحد لأنهم يحملون الجنسية أو التابعية السويسرية، ولكنهم من الناحية الواقعية والاجتماعية، يتكونون من أربعة أقوام أساسية، هم الألمان، والفرنسيون، والايطاليون، والرومانيون،

وذلك تباعاً للغة التي يتكلمونها. وحين يتكلم فريق من السويسريين أكثر من لغة واحدة لا بد أن تكون إحدى اللغات أصلية، أي لغة الأم، أو لغة البيت، وهي اللغة التي يُنسبون إليها، وعلى ذلك فلا يعني تكلمهم بأكثر من لغة واحدة انتسابهم الى قوميات متعددة لأنه لا يصحّ أن يكون للفرد الواحد أكثر من قومية واحدة[١٢].

وبريطانيا العظمى اليوم هي الأخرى دولة مركّبة تتكون من قوميات عديدة أبرزها ثلاثة، الانكليز، والاسكتلنديون، والولشيون، ناهيك عن الايرلنديين الشماليين الذين هم قومياً ـ في ما عدا الذين هاجروا من انكلترا ـ ايرلنديون، أي جزء من جمهورية «ايرة» كما تسمّي ايرلندا نفسها اليوم. والجنسية البريطانية، أو التابعية البريطانية، تجمع بين جميع تلك القوميات. وهناك فرق جلي بين لفظَي بريطاني وانكليزي، وليسا بمترادفين، كما قد يتوهَّم بعض الكتّاب، فالانكليز جميعاً بريطانيون، ولكن ليس كل البريطانيين انكليز بالمعنى القومي، إذ بين البريطانيين ـ كما قلنا ـ قوميات أخرى ربطت مصيرها السياسي ببريطانيا العظمى، ولكن بقي لها بعض مقوماتها القومية من لغة وتقاليد، بل أحكام قانونية تختلف عن القانون العمومي الانكليزي الذي يطبّق على الانكليز من البريطانيين وحدهم. بل هناك حركات قومية ـ وإن كانت ضعيفة ـ تسعى إلى الانفصال السياسي عن بريطانيا العظمى على أساس قومي.

ومن الملاحظ أن الاسم الرسمي لبريطانيا هو «المملكة المتحدة» (United Kingdom) الذي يختصر في العادة بهذين الحرفين .U.K وفي هذا إشارة إلى ما جرى من اتحاد بين مملكتي انكلترا واسكتلندا في مطلع القرن الثامن عشر بموجب «قانون التسوية»، كما يسمّى[١٣].

ويتضح من هذا أن القومية غير التابعية، وأن الخلط بينهما قد أساء الى الفكرة القومية، أو على الأدق أبقاها غامضة بعض الشيء، وقد يسعفنا في توضيح الفرق بينهما الرجوع إلى المصطلحات الأجنبية، فالجنسية أو التابعية هي ترجمة لمصطلح Nationality، بينما القومية هي الترجمة الدقيقة لكلمة Nationalism، ولا شك من وجود فرق عظيم بين هذين المصطلحين في اللغات الأجنبية.

---

(١١) في حقيقتها الراهنة وإن كان الاتحاد السويسري يسمى بـ Confédération Swisse.

(١٢) يجوز أن يكون للإنسان أحياناً أكثر من جنسية، كما قد يصبح أحياناً أخرى بلا جنسية، ولكن القومية لا تتعدد.

(١٣) وهو المسمى Act of Settlement سنة ١٧٠٢ وبموجبه توحد التاجان الاسكتلندي والانكليزي، وتوحدت المملكة وإن احتفظ الاسكتلنديون بلغتهم، وقانونهم ومذهبهم الديني الخاص.

وقد يكون من المفيد أن نضيف إلى ما تقدم أن ليست القومية، مع ذلك، مجرد الانتساب السلبي إلى قوم، إذ في القومية من الروح الحركية النضالية ما يتطلب الإيمان العقائدي الفعال الذي لا يغني فيه مجرد الانتساب الى القوم. وعلى هذا فايطاليا، مثلاً، دولة قومية، بمعنى انطباق حدودها السياسية مع حدودها القومية، أي أن للايطاليين الخصائص الأساسية التي تجعلهم قوماً من الأقوام، ولكن هذا لا يعني أن كل الايطاليين قوميون بالمعنى العلمي الدقيق[14]. والذي نريد أن نؤكده الآن هو أن القومية ليست مجرد انتساب قانوني إلى الدولة، ولا مجرد انتساب سلبي الى قوم من الأقوام، وان تصوير القومية على هذه الشاكلة خطأ فاحش، وتشويه لحقيقة القومية.

٤ ـ القومية و«العنصرية»

وقد أُخذ على القومية عموماً، وعلى القومية العربية خصوصاً، اقترانها في أذهان كثير من الناس بـ «العنصرية». صحيح أن بعض دعاة القومية ـ في أوروبا خاصة ـ كانوا يقيمونها على أساس من الانتساب الى عنصر معيّن؛ ولقد قامت بحوث ونظريات تدعو الى تقسيم العالم إلى أجناس وعناصر متمايزة بعضها عن بعض. وقد غالى بعض الكتّاب فزعموا وجود شعوب نقية، وأمم ذات دماء طاهرة، وأخرى ذات دماء مختلطة ملوثة، وأدى ذلك إلى الاستعلاء القومي، والتعصب العنصري، وقاد الى كثير من الهراء الذي يناقض الحقائق العلمية الثابتة، ويتنافى مع حقائق التاريخ الإنساني كله. وسنرى في البحث القادم تفصيلات أخرى في نقد هذه النظرية.

ولكن القومية مع ذلك ليست مرادفة للعنصرية، ولا هي نتيجة من نتائجها، على أن من الحق علينا أن نعترف بأن فريقاً ممن كانوا يزعمون أنهم قوميون، في بعض البلدان العربية، كانوا في بعض الفترات الماضية قد أشاعوا ـ تقليداً للغرب ـ بعض المفاهيم العنصرية التي زعموا أنها بعض ما تتطلبه القومية العربية، وبعض ما يستلزمه بعث الوعي القومي، للنهوض بأمة العرب.

ولكن القومية العربية، وهي تشيد بنيانها على أساس من العقل المتزن، والعلم الصحيح، قائمة على دعائم ثابتة من المشاعر المشتركة، والوجدان العام، والمصلحة المتبادلة،

---

(١٤) يصح أن يقال إن جميع الايطاليين ينتسبون انتساباً جغرافياً إلى القومية الايطالية، ولكن الانتساب العقائدي يكون قاصراً على من يؤمن فعلاً بقوميته.

بين فريق من الناس متجاوبين، تربطهم اللغة الواحدة، ويؤلف بينهم التاريخ العام المشترك الواحد، وتنتظم حياتهم التقاليد والعادات المتماثلة، ويحفزهم ـ فوق ذلك وقبل ذلك ـ للعمل المشترك، المصير الواحد، والمصلحة الاقتصادية المتكاملة، في وطنهم الكبير الواحد، والتحديات الكبرى التي تواجههم، ويسعى كل منها إلى القضاء عليهم بطريقته. إن هذه القومية لا مكان للعنصرية فيها، والقومية العربية بهذا الاعتبار في نجوة من كل الادعاءات المناهضة للعلم، والمعارضة للعقل، والمباينة لحقائق الكون، والمناهضة لطبيعة الأشياء. إن محاولة أعداء القومية العربية قرنها دائماً بالعنصرية، على الرغم من خصائصها الواضحة هذه، محاولة لئيمة يراد بها التضليل، ويقصد منها الإرجاف، لصرف بعض الناس عنها، بإظهارها مناهضة لقواعد العلم، ومعارضة لنواميس العقل، ومتنافرة مع مُثُل الانسانية الرفيعة.

ولنا أن نؤكد جازمين أن ليس في القومية العربية اليوم في أصول فلسفتها، ودعائم مقوماتها، وأهدافها السياسية القريبة أو البعيدة ما يمكّن من مقارنتها بـ «النازية» أو «الفاشية» مثلاً، ومع ذلك فكثير من أعداء القومية العربية، في الداخل والخارج، ما يزالون يقرنونها دائماً بهذين المذهبين السياسيين، وكثيراً ما نراهم يسمون كل زعيم قومي عربي، وكل مفكر قومي عربي بأنه نازي أو فاشستي، أو أي لفظ من الألفاظ التي تشير الى التعصب الجنسي، والاستعلاء العنصري.

وكم يجدر بهؤلاء وبغيرهم أن يميزوا بين بعض القوميات التي قامت في أوروبا، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، على أساس من الاستعلاء العنصري، والرغبة في إرضاخ بعض الشعوب والأجناس الأخرى إلى سلطانها، وبين القومية العربية، وبعض القوميات الأخرى التي تجلت بصورة خاصة في آسيا وافريقيا بعد الحرب العالمية الثانية، والقائمة في أساسها على دعوة التحرر من النفوذ الأجنبي، وتحقيق مبدأ تقرير المصير، والعمل على رفع مستوى الأفراد الى الحد اللائق بالكرامة الانسانية، وجمع شتات أفراد الأمة الواحدة التي فرض الاستعمار الأجنبي عليها تقسيماً وتشتيتاً، وبالنتيجة استكانة وضعفاً.

وفي الحقيقة، فقد أدرك بعض المفكرين الأحرار ـ من غير القوميين ـ هذه الحقيقة وأعلنوها، ولا زلت أذكر محاضرة ألقاها المحامي البريطاني المشهور المستر برت، رئيس جماعة أنصار السلام في انكلترا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨ في نادي المحامين في بغداد، وذلك عندما زار العراق بعد ثورة تموز/ يوليو. لقد قال ذلك المفكر ما معناه: «إن القومية العربية هي قومية متحررة، ويجب أن لا يخلط بينها وبين القوميات العنصرية التي قامت في أوروبا. إن القومية العربية وسيلة نافعة لإصلاح أحوال أهل البلاد، ورفع مستواهم». وعلى الرغم من هذا القول الصريح الذي أعلنه مفكر لا يؤمن بالقومية من حيث الأساس، فقد بقي الشيوعيون والشعوبيون والانتهازيون

أثناء الطغيان الشيوعي في العراق في عامي ١٩٥٩ و١٩٦٠ يتهمون القومية العربية بالعنصرية، ويسمون دعاتها والمؤمنين بها بكل شنيع من الصفات. إن عمق جذور النزعة الشعوبية في العراق هو في واقع الحال الدافع الحقيقي لهذا الموقف المعادي للقومية العربية. إن الشعوبية لا تريد أن تهادن القومية العربية مهما اتصفت به من نزعة إنسانية، ومهما كانت علمية وواقعية في حقيقتها وطبيعتها. على أن هذا الموقف المعادي يجب أن لا يصرف القومية العربية عن مُثلها، واستمساكها بنزعتها المتحررة، وروحها المناهضة للعنصرية، لأن ذلك هو التعبير الصادق عن حقيقة القومية العربية، وإن في ذلك الوسيلة المجدية لنشر دعوتها، وتعميم شيوعها في أرجاء الوطن العربي كله.

٥ ـ القومية و«اليمينية»

وكما اختلط لفظ القومية في أذهان كثير من الناس بالعنصرية، فقد اختلط معناها بـ «اليمينية» في أحيان كثيرة أخرى، وسمّي القوميون ـ قياساً على أحوال أوروبا ـ باليمينيين. واليمين واليسار مصطلحان سياسيان ظهرا في أوروبا نتيجة أوضاع سياسية واقتصادية، ونتيجة أوضاع دستورية وبرلمانية لا علاقة لها البتة بأوضاع أمتنا العربية. إن أحزاب اليمين، وهي أحزاب محافظة، بل رجعية أحياناً، كانت تسمّي نفسها الأحزاب القومية، وحين ترجمت تلك المصطلحات إلى اللغة العربية أطلق لفظ اليمينيين على القوميين.

إن تلك الأحزاب التي تسمّي نفسها قومية ليست في واقع الحال من القومية بالمعنى الذي تريده القومية العربية وتدعو إليه في شيء. إن القومية العربية، كما سنرى تباعاً في بحوثنا القادمة، تهدف الى التحرر من الأجنبي في الخارج، والتحرر من سلطان الاقطاع والرجعية والرأسمالية في الداخل. ثم ان هذه القومية اشتراكية بكل ما تهدف إليه الاشتراكية الرشيدة من غايات سامية في تحقيق العدالة الاجتماعية، والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال. بل إن الاشتراكية العربية هي قرينة القومية ذاتها كما سنوضح هذا الأمر بجلاء في البحث الخاص بخصائص القومية العربية. وعلى ذلك يكون قرن القومية باليمينية مغالطة، أو على الأدق خطأ فاحشاً يجب أن نتنبه إليه، وأن نتجنب ترجمة المصطلحات الغربية بصورة حرفية دون ملاحظة اختلاف البيئات، وتباين الظروف السياسية، وتطور المعاني. ويجب أن نتنبه، بصورة خاصة، الى تطور استعمال المصطلحات في البيئات الأوروبية مع اختلاف الزمن.

ولقد تنبّه ساطع الحصري الى هذا الأمر وأشار إلى لزوم التفريق بين اليمينية وبين القومية فقال:

«ولكني كنت أعرف أن الفرنسيين صاروا - منذ مدة قصيرة - يستعملون كلمة ناسيوناليزم لمعانٍ تختلف كثيراً عن معناها الأصلي الذي كان قد تقرر وذاع في القرن التاسع عشر، خلال حركات الاستقلال والاتحاد التي قامت في مختلف البلاد الأوروبية.

«إنهم صاروا يطلقون اسم ناسيوناليزم أو ناسيوناليست على بعض المذاهب والأحزاب السياسية المعروفة «باليمينية» و «الوطنية المتطرفة» على الرغم من كونها مخالفة لمبدأ القوميات مخالفة صريحة. إن التباعد الذي حصل - بهذه الصورة - بين المعنى الأصلي لكلمة ناسيوناليزم، وبين هذا المعنى الجديد قد استرعى اهتمام رينه جوهانه (René Johannet) عندما ألّف كتابه المعروف عن مبدأ القوميات. ولاحظ التشويش الذي يحصل في الأذهان من جراء التعبير عن هذين المعنيين المختلفين بكلمة واحدة، فرأى من الضروري أن يصوغ كلمة جديدة للدلالة على المعنى الأصلي الذي كان يُقصد من كلمة «ناسيوناليزم»، واقترح أن تسمّى النزعات والمذاهب التي تتصل بمبدأ القوميات «ناسيوناليتاريست» (Nationalitaristes). على أن نترك كلمتي ناسيوناليزم وناسيوناليست إلى المعاني التي أعطتها إياها الأحزاب السياسية الآنفة الذكر. . .»(١٥).

وظاهر من هذا أن استعمال بعض الأحزاب الفرنسية والايطالية لفظ القومية بمعنى أنها محافظة على الوضع الراهن، والاستمساك بمصالح الدولة ضد الأفكار الحرة المتجددة التي تريد أن تقيم العلاقات الدولية على أساس من الاحترام المتقابل بين الأمم، وعلى أساس من الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها، إن هذا الاستعمال الخاطىء المنحرف يجب أن لا ينتقل إلى لغتنا بحيث نتصور أن القومية هي المقابل للحركات أو الأحزاب السياسية اليمينية في أوروبا.

إن القومية، أولاً وقبل كل شيء، مضادة لتلك الأحزاب لأنها تريد التحرر والانعتاق حين تريد تلك الأحزاب الإبقاء على الوضع الراهن. ثم ان القومية تجديد وانبعاث، في حين تدعو تلك الأحزاب إلى الجمود والاستمساك بالوضع الراهن، وأكثر من ذلك فإن القومية، بمعناها الغربي الذي شاع في القرن التاسع عشر، والذي اقتصر مداه بالدرجة الأولى على الناحية السياسية، لا يمكن أن يبقى مفهومها في القرن العشرين - وبالنسبة إلى الشعوب الناهضة الحديثة - قاصراً على ذلك المعنى. فلا بد أن تصبح القومية عقيدة سياسية اقتصادية اجتماعية في الوقت ذاته. والقومية في ناحيتها الاقتصادية لا يمكن أن تكون - بالنسبة إلى الأمة العربية خاصة - إلا اشتراكية تقدمية، وعلى هذا فهي معارضة لمبادىء أحزاب اليمين التي تسمّى نفسها الأحزاب القومية.

---

(١٥) انظر: ساطع الحصري [أبو خلدون]، حول القومية العربية، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١)، ص ٣٢.

يخلص لنا من هذا كله أن مصطلح القومية، وبصورة أدق أن مصطلح القومية العربية، يجب أن لا يقترن بحال من الأحوال باليمينية المتحجرة التي ليست صالحة لهذا الزمن الذي نعيش فيه.

٦ ـ القومية و«نظام الحكم»

وجدير بنا أن نتنبه إلى خطأ شائع، عمل على شيوعه بعض القوميين بحسن نية، ومهّد لنشره بعض خصوم القومية عن عمد وبسوء نية، وأعني به الخلط بين القومية العربية (من حيث هي عقيدة، وفلسفة اجتماعية اقتصادية سياسية، ومن حيث هي حركة ثورية تجديدية)، وبين نظام الحكم الذي يجب أن يسود في البلدان العربية كلها.

ويحسن بنا، بهذه المناسبة، أن نشير إلى الفرق بين القومية العربية، من ناحيتها الذاتية، وبين أسلوب الحكم المفضّل، أو الطريقة التي يجب أن نختارها في تقرير أوضاعنا الدستورية. إن المسألة الأولى هي من صميم القومية، بل هي القومية ذاتها، أما المسألة الثانية فهي ليست من أصول القومية العربية، بل إنها قضية تتصل بالدراسات الدستورية والقانونية. إن الذي أريد أن أوضحه هو أن القومية العربية يجب أن يُنظر إليها مجردة عن نوع الحكومة، أو شكل الدولة العربية، وبعبارة أوضح إن مصطلحات امبراطورية عربية، أو حكومة عربية واحدة، أو دولة مركزية، ليست فيما أرى من أسس القومية العربية الثابتة. بل إني أعتقد أن في ذكر لفظ امبراطورية في عصر أخذت فيه الامبراطوريات تتهاوى تباعاً، رجعية مسيئة الى الفكرة القومية ذاتها. إن قوميتنا العربية المتحررة النيّرة الهادفة الى جمع شمل العرب يجب أن تؤكد روحها الثورية هذه في المصطلحات التي تصطنعها، ونظام الحكم المفضّل الذي تختاره لنفسها.

وأكثر من هذا إن الخلط بين الوحدة العربية من حيث انها «التعبير عن الأمة العربية الواحدة، والوطن العربي الكبير الواحد، والفكرة القومية الأساسية الواحدة، والكفاح العربي الواحد، والمصير العربي الواحد»، وبين «طريقة الحكم القائمة على أساس دولة مركزية واحدة تحكم البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها» قد أساء كثيراً إلى القومية العربية، وأوجد كثيراً من اللبس الذي صرف فريقاً من أبناء الأمة العربية عن قوميتهم.

وعندي أن القومية العربية، والوحدة العربية، والعروبة المشتقة منهما، لا تفترض حتماً، ولا تستلزم بالضرورة، إنشاء حكومة مركزية واحدة تباشر هي ـ دون سواها ـ كل متطلبات الحياة في الدولة العصرية الحديثة في الوطن العربي الكبير كله من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب.

إن القومية العربية، وهي مفتحة الذهن إلى واقع الأشياء، مقدرة طبيعة الزمن وتطوره المستمر، عالمة بامتداد هذا الوطن العربي الواحد، في قارتين عظيمتين ألوف الكيلومترات، مدركة تباين أجوائه الطبيعية والاجتماعية بعض التباين أو كله، ليس من المعقول أن تلتزم سلفاً، وبصرامة تامة، بشكل واحد محدد من أشكال الحكم العديدة، بحيث لا تحيد عنه، ولا تسعى إلى تطويره أو تغييره حسب مقتضيات العصر، وحسب حاجة الأمة العربية ذاتها.

إن الأمة العربية ستسير، من دون شك، في تطور ذاتي حر مستمر، نحو هدفها السياسي الرئيسي في إقامة «كيان عربي عام مشترك» دون أن تحدد سلفاً، وبصرامة شديدة، شكل هذا الكيان وأوضاعه الدستورية.

إن من واجب العرب أن يبحثوا بعمق عن أفضل الأشكال الدستورية التي تحقق للأمة العربية غايتها الأساسية هذه، ولكن ذلك لا يعني الالتزام المسبق بشكل واحد، دون سواه من الأشكال العديدة الأخرى.

إن أهداف القومية العربية السياسية تتحقق في ظل الدولة الواحدة الموحدة، كما تتحقق في ظل الدولة الاتحادية، على شكل من أشكال الدول الاتحادية العديدة. كما أني أعتقد ـ في هذه المرحلة من تطورنا السياسي خاصة ـ أن أغراض الوحدة قد تتحقق في ظل تجمُّع أو اتفاق دولي صميم وتضامن عربي جدي مخلص مع بقاء بعض أجزاء الوطن محتفظاً ـ لغرض أو لآخر ـ بسيادته الدولية لفترة من الزمن. فليست العبرة بالشكل الظاهر أو الوضع الدولي، بل العبرة، كل العبرة، بحقيقة تلك العلاقات.

ويجدر بنا، في هذا الصدد أن نتذكر أن الاتحاد السوفياتي، مثلاً، قد اعتبر روسيا البيضاء وأوكرانيا وغيرهما دولاً ذوات سيادة كاملة، لكل منها، ممثلها في هيئة الأمم المتحدة، ومن حق كل منها قبول الممثلين السياسيين، أي أنها تتمتع بكل الأعراف الدولية التي تجعل من كل منها دولة ذات سيادة كاملة شكلاً. ولكن هل لعاقل أن يزعم أن أوكرانيا، مثلاً، خارجة على الكيان السياسي للاتحاد السوفياتي، في الحقيقة والواقع. فالعبرة في وحدة الأمة ليست الشكل الدستوري بقدر ما هي واقع تلك العلاقات بالفعل والتطبيق.

وليس معنى هذا أننا نقر الأوضاع الراهنة في البلدان العربية اليوم، وليس معناه أننا نريد الحفاظ على الكيانات المصطنعة القائمة في كثير من أجزاء الوطن العربي، إنما الذي نعنيه هنا هو أن تحقيق غاية الوحدة العربية لا يستلزم إقامة دولة مركزية واحدة، وأن من خيرنا أن نعمل على إيجاد النظام الأمثل الذي يحقق لنا ما نريد دون أن نلتزم بالأشكال المتعارفة للدول. يجب أن تكون عنايتنا بالجوهر والحقيقة دون العَرَض والشكل.

إن من مصلحتنا القومية أن نعي هذا وعياً تاماً، وأن لا نخضع خضوعاً أعمى لما قد توحيه لأول وهلة بعض شعارات التنادي، وبعض عبارات الهتافات التي ترددها الجماهير. إن هذه قد تصبح مسيئة حين تفسَّر تفسيراً ضيقاً عند التطبيق الفعلي، بقدر ما هي نافعة حين يراد بها استثارة الجماهير، ومحاولة رفع الروح المعنوية بين الكافة.

إن هذه المعاني كانت عميقة في نفسي حينما وضعت في أعقاب ثورة الرابع عشر من تموز/ يوليو ١٩٥٨ في العراق كتيّبي عن **الدولة الموحدة والدولة الاتحادية**، ونبّهت إلى بطلان دعوى الشيوعيين في العراق للاتحاد الفيدرالي. وكانوا قد طرحوا هذا الشعار للجماهير، وصاروا يتنادون به، ويدعون إليه، ويكتبون المقالات في جرائدهم لتحبيذه. ولكنهم في واقع الحال ما كانوا يريدون وحدة ولا اتحاداً، ولكنهم اتخذوا من شعارات النداء بـ «الاتحاد الفيدرالي» وسيلة لمقاومة «لا الدولة الموحدة فحسب» بل لمقاومة الفكرة القومية ذاتها، وإشاعة الأضاليل حولها. لذلك كنت قد أكدت في ذلك الكتاب أن غاية القومية العربية في دعوتها للوحدة العربية تتحقق في ظل الدولة الواحدة الموحدة والدولة الاتحادية على حد سواء، ولا معنى لاعتبار دعاة الاتحاد الفيدرالي خارجين على نطاق القومية العربية، والوحدة العربية.

ولقد دعوت في ذلك الكتاب إلى لزوم إقامة دولة اتحادية تنتظم العرب في كل أقطارهم، من المحيط إلى الخليج. وقلت إن هذا النظام الاتحادي لن يحتكر جميع أعمال الدولة ويركزها في هيئة واحدة، بل إن الكيانات المحلية ستمارس الشؤون الداخلية والمحلية الصرفة والمسائل البلدية وكل ما ليس من اختصاص دولة الاتحاد. ولقد أكدت في ذلك الكتاب أيضاً لزوم أخذ واقع العرب بنظر الاعتبار، وصرحت بأن الدولة البسيطة، أو الدولة الواحدة الموحدة لا تتسق مع واقع الأمة العربية في هذه المرحلة من مراحل تطورها، وقلت في تعليل ذلك ما يأتي: «يجب أن لا ننسى أننا في القرون العديدة الماضية خضعنا لقوى أجنبية عديدة، الأتراك، والفرس، والانكليز، والفرنسيين، والايطاليين، والأسبان، والبرتغاليين، لقد احتل هؤلاء في فترات مختلفة أجزاء من بلادنا، وأورثونا ـ شئنا أم أبينا ـ أوضاعاً معينة، وأوجدوا فينا نوعاً من الفرقة والتباين. وبيننا اليوم أقليات عنصرية ودينية، بعضها غير قابل للانصهار أصلاً، وبعضها تربطنا بهم روابط القومية أو الدين، ويجب أن تقوى تلك الروابط، وتؤكد عوامل الأخوة المشتركة بيننا وبينهم، ولكن لا بد من مرور بعض الزمن لإثبات حسن نياتنا من جهة، وتركيز قوانا من جهة أخرى. فالتدرج في العمل السياسي ضرورة حتمية. وعلى ذلك ـ وعلى الرغم من أن الاتحاد في حد ذاته في نظر البعض وسيلة صالحة للبقاء دائماً ـ فإنه يجب أن يكون في رأي الآخرين على الأقل مرحلة معقولة من مراحل الانتقال وتطورنا الدائم»[16].

---

(١٦) انظر: عبد الرحمن البزاز، **الدولة الموحدة والدولة الاتحادية**، ط ٢ (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٠)، ص ١٠٢.

وإنه لما يدعو إلى الإعجاب أن يكون الرئيس جمال عبد الناصر مدركاً لهذه المعاني كل الإدراك، وقد عبّر عنها صراحة في مناسبات عديدة، أجتزىء بمثالين اثنين. أولهما حديثه مع الصحفي الأمريكي المشهور آدمز شميت، الذي سأل الرئيس عن معنى الوحدة العربية فأجابه بما يأتي: «كان الهتاف بالوحدة العربية شعارنا، ولما هتفنا لم نكن نفكر في الصور الدستورية وإنما كان هتافنا تعبيراً عن عاطفة قوية تملأ نفوسنا، كذلك كان تعبيراً عن إحساس بضرورة أن يكون العرب جميعاً متحدين ضد كل خطر خارجي... إن الوحدة العربية ظلت دائماً قوة روحية... أما تحويلها إلى قوة مادية فإن معنى ذلك أنها توضع في تجربة ضخمة في مواجهة قوى كبيرة وكثيرة... قوى الاستعمار، قوى الرجعية، وقوى محترفي السياسة الحزبية...»[١٧].

ثم أضاف قائلاً: «ولكن ذلك مرة أخرى لا يعني بالضرورة أن الوحدة العربية تفرض أن تكون البلاد كلها دولة واحدة. إن الذي يعنيني أن يقوم التضامن العربي ويتوحد الكفاح، لأن المصير العربي واحد، والقدر المكتوب للعرب واحد. أما الأشكال الدستورية فأمرها سهل بسيط. إن لكل شعب حقه في أن يرسم حدوده مع باقي شعوب الأمة العربية. إن أراد بعضها أن يتوحد مع غيره في دولة واحدة فذلك أمره، وإذا أراد أن ينضم في اتحاد فيدرالي مع غيره فذلك أيضاً أمره، وإذا أراد أن يحتفظ بحدوده ظاهرة واضحة فذلك أخيراً أمره. إنما المهم أن يكون التضامن قائماً في جميع هذه الأحوال».

والمثال الثاني ما جاء في حديث له نشرته جريدة الأهرام جواباً عن سؤال وجّه إليه عن الشكل الذي يراه لتحقيق الوحدة العربية: «إننا نؤمن بأن الوحدة العربية ضرورة لصالح الشعوب العربية. بل ونؤمن كذلك أنها التعبير الأصيل عن أماني العرب، ولكننا لا نستطيع أن نحدد الشكل الذي يمكن أن يعبّر به الإحساس بضرورة الوحدة عن نفسه. هل يكون هذا التعبير في شكل وحدة دستورية كاملة؟ أو يكون في شكل اتحاد؟ أو يكون في شكل تضامن وتعاون على نحو ما ينبغي أن يكون في ميثاق جامعة الدول العربية؟ تلك كلها أسئلة نعتقد أن الشعوب العربية باجماعها الكامل هي التي تملك الإجابة عليها»[١٨].

إن عمق هذه الأفكار وجديتها والاخلاص الظاهر في كل عبارة من عباراتها لا يحتاج إلى مزيد من القول والتوضيح. وأحسب أن الأحداث التي أصابت الجمهورية العربية المتحدة في نهاية عام ١٩٦١ والطريقة الحكيمة المتزنة التي تجلت في أقوال رئيس الدولة وأفعاله لا تبقي مجالاً للشك بأنه من هذا الطراز العالي من قادة الشعوب الناهضة الذين يؤمنون بما يقولون، ويقولون بالذي يؤمنون به.

ويخلص لنا من هذا كله أن الوحدة والاتحاد أشكال دستورية لا يجب أن ترقى إلى مستوى العقائد الثابتة، إنها وسائل قابلة للتجدد والتطور. وأكثر من هذا ان وحدتنا العربية يمكن أن تقوم على شكل جديد نبتكره نحن أبناء الأمة العربية بحيث يلائم أوضاعنا الراهنة، ويحقق أهدافنا العليا، دون التزام صارم بشكل معيّن من أشكال الدول المعلومة نجمد عليه.

---

(١٧) انظر: الأهرام، ١٩٥٩/١١/٧.
(١٨) انظر: الأهرام، ١٩٦٠/٢/٨.

ولكن هذا لا يعني، بحال من الأحوال، لزوم التسليم بالأوضاع الراهنة واعتبار الحدود القائمة نهائية. إن دعوة التكتل والتجمع أساسية لكل قومية، وهي ضرورة حياتية للقومية العربية ذاتها. ولكن الخلاف حول شكل هذا التكتل، وطريقته لا يجب أن يؤدي إلى خلاف جدي حول ماهية القومية العربية، وحقيقة دعواها لوحدة العرب.

إن من واجب المفكرين القوميين العرب عموماً، والمختصين بالشؤون القانونية خصوصاً، والمعنيين منهم بالقانون العام على وجه التخصيص، أن يضعوا نموذجاً كاملاً للصورة التي يجب أن يقوم على أساسها بنيان الكيان العربي العام المشترك المنشود، وذلك لكي تبرز أمام الأنظار صورة واضحة لهذا الذي تدعو القومية العربية إليه، ولتستبين إمارات ذلك الكيان في تحديد علاقات الأقطار العربية بعضها ببعض على أساس من واقعها، وحاجتها من جهة، وإدراك كامل لغايات القومية العربية وأهدافها العليا من جهة أخرى.

إننا حين نسلّم بلزوم التكتل العربي ـ ذلك التكتل الذي نراه حتمياً توحي به عِبَرُ التاريخ، ويفرضه سير الزمن وروحه، وتتطلبه مواجهتنا التحديات الكبرى التي تشخص أمام أمتنا العربية ـ نرى أن هذا التكتل يجب أن يكون، أولاً وقبل كل شيء، خادماً الأغراض القومية العليا، ومجسماً المُثُل التي تتنادى القومية بها، وليس مجرد صورة ثابتة جامدة تقسر الأمة العربية كلها قسراً على تقمصها، وتمثّل صورتها. إنه كيان حي، ويجب أن يؤخذ حين تشييده واقع الأمة العربية، وأهدافها الأساسية، وغاياتها الكبرى، في نظر الاعتبار. إن هذا الكيان الحي، يجب أن يتسم بكل سمات الكائن الحي في النمو والتجدد، والفعالية.

إن هذا التكتل لا يعني مجرد تجمّع مصطنع توحي به سياسات عابرة، وتشجع على إقامته دول خارجية ترمي من وراء إقامة أمثال تلك الكيانات المكذوبة صرف أنظار أبناء الأمة العربية، أو فريق منهم على الأقل، عن حقيقة تكتلهم الجدي المنشود الذي يجب أن لا يصرفهم عنه صارف.

هذا، ويحسن بنا أن نشير في هذه المناسبة، إلى أنه ليس في دعوتنا إلى إقامة التكتل العربي على أساس من النظام الاتحادي، تسليم بالحدود القائمة والصور والأشكال المعهودة اليوم في واقع الوطن العربي الكبير. إن أجزاء من هذا الوطن تكوّن وحدات طبيعية ويجب أن تكون أكثر تماسكاً مما يقتضيه التسليم بالنظام الاتحادي. كما أن هناك كيانات، أو على الأصح وحدات سياسية، هي في واقع حياتها وحدات مفككة أو مصطنعة يجمعها الولاء لعرش واحد، أو الخضوع لسيطرة حكومة واحدة، ويمكن أن تكون في ظل النظام الاتحادي المرتقب وحدات متعددة. وليس المهم في كيان الدول العربية المتحدة تجميع الوحدات القائمة، الأكثر أهمية هو مراعاة الحاجة الفعلية لأبناء الأمة العربية في كل أوطانهم الصغيرة التي هي جزء من وطن عربي كبير واحد. والعبرة، فوق هذا، بطبيعة الأقاليم، وبطبيعة الاجتماع الخاص بسكان تلك الأقاليم، وبطبيعة حاجات القومية العربية ذاتها.

ولا يسعنا هنا أن نتبسط في ذكر الأسس العامة، أو الكليات الجامعة في هذا النظام الاتحادي، فقد نعود إلى هذا في بحث آخر ولكن يحسن بنا أن نقرر هنا على عجل بأن لا بد من تحقيق المواطنة العامة لكل أبناء الأمة العربية، وأن لا بد من العَلَم الواحد الذي يرفرف على كل أجزاء الوطن الكبير، وأن لا بد من الجنسية الواحدة، أو جواز السفر الواحد الذي يحمله أبناء العروبة حين يكونون خارج وطنهم، وأن لا بد من جيش واحد قادر بقواه البرية والبحرية والجوية على حفظ ذمار الوطن العربي كله، وصد العدوان من أية جهة كانت، وأن لا بد من تمثيل سياسي واحد ينطق باسم العرب أجمعين، وأن لا بد، قبل ذلك، من حكومة مركزية لها رئيسها، ولها جهازها القادر على تحقيق وحدة الدفاع العربي، ووحدة السياسة الخارجية العربية، ووحدة التمثيل، وإدارة المصالح الأساسية التي لا تحتمل بطبيعتها إلا أن تكون مركزية تعمّ العرب أجمعين.

وجلي من هذا أن القومية العربية في دعوتها إلى الوحدة لا تلتزم بالأشكال والصيغ الدستورية، إنما تدعو إلى تحقيق ما تهدف إليه كل قومية من إقامة كيان عام قادر على النطق باسم الأمة كلها، كفيل بإبراز صورة حية تمثلها تمثيلاً صادقاً فعالاً.

٧ ـ القومية و«الدين»

حري بنا أن نتنبّه إلى هذين المصطلحين كل التنبُّه، لئلا نقع في الأخطاء الشائعة بين فريق من الكتّاب والمفكرين الذين جعلوهما سواء، أو مترادفين. كما أساء فريق آخر من المفكرين حين صوروا القومية معارضة للدين.

والحق أن القومية غير الدين، ولكنها ليست، بالضرورة، ضد الدين. وأكثر من ذلك، إن «القومية العربية» و«الديانة الإسلامية» خاصة يلتقيان في مسائل عديدة جداً، ويسيران جنباً إلى جنب أشواطاً بعيدة. وباستطاعة المرء أن يوفق بين عقيدته الدينية، وشعوره القومي ـ بالمعنى الذي أشرنا إليه، والذي سنزيده توضيحاً ـ كل التوفيق، كما سبق أن أوضحت ذلك في بحث خاص عنونته «الإسلام والقومية العربية»[١٩].

إن غاية القومية العربية السياسية تحقيق وحدة العرب، ولمّ شملهم، وتحريرهم من كل القيود الخارجية والداخلية، على حين أن الوحدة الإسلامية تهدف إلى إقامة كيان عام يجمع المسلمين على اختلاف أفكارهم وأقوامهم.

---

(١٩) لقد أعدت نشر ذلك البحث في: عبد الرحمن البزاز، من وحي العروبة (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٠)، ص ١٩٢.

وجلي من هذا أن الوحدة الإسلامية أشمل وأوسع مدى من الوحدة العربية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القومية العربية حين تدعو إلى إقامة كيان سياسي عربي مشترك تهدف إلى توحيد العرب، بغض النظر عن معتقدهم الديني.

يتضح جلياً من هذا أن هناك فرقاً بين «الوحدة العربية» و«الوحدة الإسلامية» خصوصاً وعموماً، وعلى هذا فتكون معارضة بعض دعاة الوحدة الإسلامية للوحدة العربية لا وجه لها. فإذا كانوا يهدفون، مثلاً، إلى جمع المصري والسوري والعراقي والتركي والإيراني والباكستاني وغيرهم في كيان واحد، على أساس من وحدة المعتقد الديني، فيجب أن يكون ـ من باب أولي ـ جمع المصري والسوري والعراقي على هذا الأساس، وعلى أسس أخرى أكثر اتصالاً بالحياة كاللغة، والتاريخ المشترك، ووحدة الوطن، أشد لزوماً، وأكثر حتمية.

يقول السيد جمال الدين الأفغاني في بعض مقالاته التي كتبها باللغة الفارسية وتُرجمت إلى بعض اللغات الأخرى: «إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان: وحدة اللغة، ووحدة الدين. ووحدة اللغة هي الأساس الذي تقوم عليه الجنسية. واللغة أشد ثباتاً وأكثر دواماً من الدين، لأننا نعرف أمما غيّرت دينها خلال ألف عام مرتين، بل وثلاث مرات، دون أن يطرأ خلل على وحدتها اللغوية والقومية. فنستطيع أن نقول كذلك إن تأثير رابطة اللغة في هذه الدنيا أقوى من تأثير رابطة الدين»[٢٠].

وقال أيضاً: «لا سعادة إلا بالجنسية (أي القومية)، ولا جنسية إلا باللغة، ولا لغة ما لم تكن حاوية لكل ما تحتاج إليه طبقات أرباب الصناعات والخطط في الإفادة والاستفادة»[٢١].

وظاهر من هذه العبارات القوية التي تفوّه بها السيد جمال الدين الأفغاني أن الرابطة القومية أعظم نفوذاً في علاقات البشر اليوم بعضهم ببعض، وعلى ذلك فإن دعوة القومية العربية لجمع شتات أبناء الأمة العربية دعوة متسقة مع متطلبات الحياة، ونواميس العمران.

وأكثر من هذا، فإن الإسلام بالمعنى الأشمل (والمسيحية أيضاً) يكوّن جزءاً حيوياً من تراثنا القومي، والمعتقد الديني والشعور القومي يلتقيان ـ فوق هذا ـ في كونهما ينبعان من معين المثالية التي تعارض المادية وكل ما تشعّب عنها من فلسفات كل المعارضة. وعلى ذلك فليس من المنطق، ولا من المصلحة، أن يخاصم دعاة الوحدة الإسلامية دعاة القومية العربية، بل عليهم أن يعتبروا دعوة القومية العربية خطوة إيجابية أولى تقرّبهم من أهدافهم أشواطاً كبيرة.

وقد يكون من المفيد هنا أن نردّ على فريق من القوميين الذين يريدون أن يبعدوا الإسلام عن القومية العربية إبعاداً كاملاً بحجة أن ربط القومية العربية بالدين الإسلامي قد

---

(٢٠) انظر: ساطع الحصري [أبو خلدون]، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، ص ٢٢٦.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

يثير المسيحيين العرب. . . ولكن من اللازم على هؤلاء أن يتذكروا أن الإسلام بالنسبة إلى العرب جميعاً (مسلمين وغير مسلمين) جزء أساسي من حضارتهم، وجزء هام من تاريخهم، ولا سبيل إلى فصم العرى الوثيقة التي تربط العرب بالإسلام. إن هذه النقطة بالذات سنزيدها توضيحاً في المبحث الثاني، وسنرى أن كثيراً من المسيحيين الواعين قوميتهم العربية ينظرون إلى الإسلام نظرة مدركة على أساس أنه المعين الروحي للقومية العربية، وأن قوميتهم تفرض عليهم أن يعتزوا بهذه الناحية من الإسلام خاصة، لأنه من تراث أمتهم العربية، وأن تفريطهم في ذلك تفريط بقوميتهم ذاتها.

٨ ـ القومية العربية و«الاقليمية»

لا شك في أن الاقليمية، أو القوميات المحلية الضيقة، تعارض القومية العربية الشاملة كل المعارضة. ولقد استطاعت القومية العربية الشاملة أن تضعف الشعور الإقليمي في كثير من الأقطار، كـ«القومية اليمانية» و«القومية العراقية» مثلاً، وما إلى ذلك من صيغ كانت ترددها ألسنة كثير من الكتّاب والمؤلفين، كما كانت تتردد كثيراً في القوانين والدساتير. ولا نكران من أن هناك فريقاً من العرب لا يزالون يجهلون أنفسهم، فيصرّون على تسمية أقاليمهم الضيقة بالقوميات كالقومية السورية والقومية التونسية، مثلاً.

إن القومية العربية لا ترضى بغير الشمول، ولا تقرّ أمثال تلك القوميات الضيقة التي ليست من القومية العربية الجامعة في شيء، ولا شك أن بعث تلك القوميات المحلية يرجع الى تطمين رغبات بعض الحاكمين ممن يريدون أن يخلدوا الأوضاع القائمة في الوطن العربي، ويثيرون في شعوبهم شعور الاقليمية الضيقة، والاعتزاز بوطنهم الصغير على أساس أنه هو وحده التعبير الصادق عن قوميتهم. وطبيعي أن يجد هذا الطراز من التفكير المفتت كل تشجيع من دول الغرب، ومن اسرائيل التي تجد في القومية العربية الشاملة القائمة على أساس من التحرر والتجمع. خطراً شديداً على مصالحها، وعلى وجودها من حيث الأساس.

ولذلك لم يكن من الغريب أن يدعو أبا إيبان في كتابه المعنون مد القومية إلى أفكار تزعم أن القومية الحقيقية في الشرق الأوسط هي القومية الاقليمية وليست القومية العربية الشاملة القائمة على تأكيد وحدة أمة العرب. ولذلك نراه يقول: «إن القومية العربية السليمة ليست بالضرورة هي التي تعبّر عن وجودها في التكتل الاقليمي الواسع الذي يجعل له مركزاً واحداً فعالاً في السيطرة. إنه لمن الأفضل أن تنعكس هذه القومية في مجموعة دول قريبة، مع حفاظ كل منها على سلطتها وشخصيتها المتميزة»[٢٢].

وبعد جدال سفسطي، وتكرار لهذه المعاني التي تنمّ عن حقد دفين على القومية العربية

---

(٢٢) انظر: Abba Eban, *The Tide of Nationalism*, p. 38.
وكان أبا ايبان الناطق باسم دولة اسرائيل في هيئة الأمم المتحدة بوصفه رئيس وفدها وسفيرها في الولايات المتحدة الأمريكية مدة طويلة وأحد الوزراء المقربين لدى بن غوريون.

الشاملة يقول: «إن الحقيقة العميقة التقدمية حول الشرق الأوسط لا يمكن وجودها في كلمة وحدة، وإنما توجد في كلمات هي، التنوع، والتسامح.

لقد وجدت منطقتنا مجدها الحقيقي حينما كانت هذه الكلمات شعارها. لا يوجد نوع واحد للقومية العربية فقط، بل توجد أقوام عديدة من العرب يربطهم بعضهم ببعض، كما يربطهم في العالم ميثاق هيئة الأمم المتحدة، وهم يظهرون تنوعاً غنياً من خلافات وثقافات اقليمية»(٢٣).

إن هذا الطراز من القومية الاقليمية هو الذي تؤيده دول الغرب الاستعمارية الكبرى، وهو الذي تدعو اليه اسرائيل. وطبيعي أن هذا الطراز من القومية الضيقة ليس من القومية العربية في شيء. إنها اقليمية محدودة يراد بها أولاً وقبل كل شيء تفتيت وحدة الأمة العربية، والذهاب بريحها، لتستطيع دول الغرب أن تحقق أهدافها، وليتاح لاسرائيل أن تبقى جسماً غريباً نابياً في كيان الوطن العربي الواحد المنسجم.

على أن من الحق علينا أن نعترف بأن مصطلح القومية السورية قد عاد من جديد يتردد على الألسنة، تشير إليه الصحافة العالمية، ودور الإذاعة المختلفة. إن الحزب القومي السوري، أو على حد ما يسمّي اليوم نفسه «الحزب القومي الاجتماعي» قد برز من جديد بوصفه أحد التحديات الفعالة التي تواجه الأمة العربية، ونستطيع أن نعده مع الاستعمار، والصهيونية، والشيوعية، يكوّن التحدي الخطير الرابع الذي يواجه قوميتنا العربية الشاملة.

إن هذا الحزب يعتقد بوجود قومية سورية متميزة عن القومية العربية، على أساس أن سكان سورية الطبيعية كانوا منذ القدم أمة متميزة، وما يزالون «أمة سورية» هي نتاج الوطن السوري. وبعبارة أخرى إن القومية في نظرهم هي نتيجة الأرض أو البيئة الجغرافية، أو على حد تعبير أنطون سعادة(٢٤): «ان تقسم الأرض إلى بيئات هو السبب المباشر لتوزع النوع البشري جماعات. فالبيئة كانت ولا تزال تحدد الجماعة، لأن لكل بيئة جغرافيتها وخصائصها» أو على حد قوله أيضاً: «الحدود الجغرافية تضمن وحدة الجماعة، لأنها تجمعها ضمنها وتكون العامل الأول في المحافظة عليها».

وظاهر من هذا أنهم يعتبرون السوريين (أبناء سوريا الطبيعية) أمة واحدة متميزة، وأن الحدود القائمة اليوم بين لبنان وسوريا الداخلية والأردن وفلسطين مصطنعة، وأن توحيد الأجزاء، مع بقية أجزاء الوطن السوري الكبير، مطلب القوميين السوريين الذي لا يحيدون عنه. ولا شك أن الحدود القائمة بين أجزاء سوريا الطبيعية حدود مصطنعة، وأن دعوة القوميين السوريين في توحيد هذه الأقسام دعوة متسقة مع القومية العربية. ولكننا حين نترك هذه النقطة وننتقل إلى أفكار القوميين السوريين ومبادئهم العامة الأخرى، يطالعنا خليط غريب من صوفية رمزية، وتعميمات غير دقيقة، وبعض الفرضيات الوهمية التي لا سند لها

---

(٢٣) انظر: المصدر نفسه، ص ٤٨.
(٢٤) انظر: انطون سعادة، نشوء الأمم، ط ٢ (دمشق: [د. ن.]، ١٩٥١)، ص ٤١.

من واقع محسوس، أو علم صحيح. وقد وقع الحزب القومي السوري في متناقضات ظاهرة ليس هذا محل نقدها المفصل(٢٥).

ولعل من الطريف أن نعلم أن الحزب القومي السوري قد ضم العراق إلى حدود سورية، وسمّاه سوريا الشرقية، كما ضم في فترة متأخرة الكويت الى حدود سورية الكبرى. وليس من غرضنا هنا الإفاضة في ما في دعوات هذا الحزب من تلاقٍ تام مع أهداف بعض دول الغرب المستعمرة الكبرى(٢٦).

وعندي أن مصير القومية السورية وهي، تستند في جذورها التاريخية الى الفينيقية، كمصير الدعوة الفرعونية في مصر، وكمصير الأشورية في العراق. ومهما بدا للقوميين السوريين من نشاط ملحوظ وفعاليات عنيفة في لبنان، فإن سبيل القومية العربية الجارف سيقضي عليها، على الرغم من السند الأجنبي الذي تلقاه من هذه الدولة أو تلك، تبعاً لسياسات الدول الأجنبية في محاربة القومية العربية، والسعي بمختلف الأساليب لعرقلة سيرها الدافق.

إن من المهم لنا أن نتبين الفرق الجلي بين القومية العربية الجامعة للعرب كلهم، والاقليمية الضيقة التي تسعى إلى تفتيت أمتنا الواحدة، على أساس من أقاليم الوطن العربي الكبير. إن قوميتنا العربية تعارض الاقليمية، وتجدّ في مكافحتها، وتراها خطراً على قوميتنا العربية لا يقلّ عن خطر الدعوة العالمية التي تريد أن تذوب الأقوام كلها في ظلها، وتسعى إلى إقامة كيان واحد للعالم كله على أساس من صراع طبقي. إن القومية العربية تقف وسطاً بين الاقليمية الضيقة، والعالمية التي تعارض مصلحتنا القومية.

٩ ـ القومية و«الاشتراكية»

لقد اتُّهمت القومية العربية بأنها خلو من التفكير الاقتصادي، وأنها لذلك مرحلة من مراحل الرأسمالية، وأنها وسيلة لخدمة الرجعية وتثبيتها، وعامل على تأييد الاستغلال للطبقات المستضعفة من الفلاحين والعمال، وليس هناك فرية أو غل في الضلال أشدّ من هذه الفرية. إن القومية العربية تدعو إلى اشتراكية رشيدة تحقق التعاون التام بين أبناء المجتمع كله، وتقف وسطاً بين الفردية المطلقة التي أدت إلى قيام الرأسمالية المتحكمة، والشيوعية القائمة على أساس من الماركسية الهادفة إلى التفسير المادي للتاريخ الانساني كله، والقائلة بحتمية الصراع الطبقي بين أبناء المجتمع. إن قوميتنا الاشتراكية تسعى الى تحقيق عدالة اجتماعية، بكل ما تعني العدالة الاجتماعية من معانٍ. وهي تسعى في الوقت ذاته إلى تثبيت أسس التضامن

---

(٢٥) لقد انتقد ساطع الحصري الحزب القومي السوري، وناقش مبادئه في كتبه: العروبة بين دعاتها ومعارضيها، ط ٢، ص ٧٣ ـ ١٤٨، ودفاع عن العروبة، ط ٣ (١٩٦١)، ص ١٣ ـ ٥١. فليرجع اليها من يريد الاطلاع على مبادىء هذا الحزب وأفكار رئيسه أنطون سعادة.

(٢٦) يعتبر القوميون السوريون الأتراك والاسرائيليين والمصريين أعداء لأن كلاً منهم يحتل جزءاً من الوطن السوري، إذ تحتل تركيا الاسكندرونة، وتحتل إسرائيل فلسطين، وتحتل مصر سيناء وقطاع غزة.

الاجتماعي بين أفراد المجتمع كله، لتحول دون الاستغلال، ودون التحكم الطبقي. إنها تسعى جاهدة إلى إقامة موازين قسط بين أفراد المجتمع جميعاً، إنها تعمل على تحقيق أوفر قسط من السعادة والرفاهية لأكبر عدد ممكن من أبناء المجتمع بوصفهم مواطنين وكفى، بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية، وأوضاعهم الاقتصادية، أو الثقافية، وهي تصطنع لذلك كل المبادىء والوسائل والأساليب التي تقربها من أهدافها هذه دون ما التزام سابق لها، أو جمود على بعضها.

وهي حين تقر الملكية الفردية والتشبث الفردي مثلاً لن تسمح بقيام رأسمالية ضخمة متحكمة تستعبد الألوف وعشرات الألوف من العمال والكادحين، وتجمع الثروات الطائلة بأيد قليلة مما يساعد على تركيز التباين الطبقي بشكل حاد. وهي حين تعترف بالملكية الفردية للأراضي الزراعية لن تسمح بقيام الاقطاع، ولن ترضى باستمراره في أي جزء من أجزاء الوطن العربي كله، لأن الاقطاع يعني تمكين فئة صغيرة من الملاك من التحكم ـ بوجه أو بآخر ـ برقاب الألوف من الفلاحين وأبنائهم وأسرهم، ومعنى ذلك تثبيت الفوارق الطبقية بين أبناء الأمة الواحدة، وتدعيم نظم القرون الوسطى التي عفى الزمن عليها.

إن القومية العربية في اشتراكيتها هذه دعوة تحررية بكل ما في التحرر من معنى سليم، ولكنها لن ترضى بتحويل هذا اللفظ (التحرر) إلى فوضى تتحكم فيها الغرائز، ويفتقد في ظلها النظام، ويشلّ الكيان الاقتصادي والاجتماعي للأمة كلها بتأثير فلسفة مادية غريبة، أقل ما يقال عنها انها لم تنبت في تربتنا، ولا تتسق مع طبائعنا، وليست لها ضرورة حتمية لتحقيق الاصلاح المنشود في بلادنا. إذ في استطاعتنا أن نحقق أهدافنا القومية دون الالتزام الصارم بمبدأ من المبادىء الاشتراكية المعلومة في العالم بصراحة وتزمت، ويكفينا الاهتداء بما توحي به الاشتراكية من مثل، وتهدف إليه من غايات، ثم العمل لإيجاد الطريق الأمثل الذي يحقق لنا أهدافنا الواضحة.

وبعبارة أدق إن الاشتراكية العربية تنظر إلى الماركسية، أو «الاشتراكية العلمية»، أو المذهب الجماعي[٢٧]، كما يسميها دعاتها، نظرتها إلى كل النظريات والمذاهب الاقتصادية الأخرى، تأخذ منها ما تشاء، وتدع ما تشاء، دون أن تتعصب لمذهب بالذات، أو تتعصب عليه. إن اشتراكيتنا، أو على الأدق إن قوميتنا الاشتراكية هذه مفتحة الذهن، طليقة الرأي، تتقبل كل ما يثبت لديها حقيقته ثبوتاً تاماً، وتراه في الوقت نفسه، نافعاً وضرورياً في تحقيق الاصلاح الاجتماعي الذي تؤمن بضرورته، وتدعو جاهدة إليه لتتمكن من تحقيق العدالة الاجتماعية التي تراها ضرورة حتمية لرفع مستوى حياة المجتمع، وإقامة تلك الحياة على أسس ثابتة رصينة. ولكنها على كل حال لن تجمد جموداً أعمى على نظرية بالذات، أو مذهب على وجه التخصيص، حتى لو اعتبر ذلك المذهب نفسه التطور النهائي للتاريخ الإنساني كله. إنها تعتقد أن التطور والتحول حتمي، وأن الجمود على مذهب من المذاهب ـ مهما بدا ذلك المذهب في حينه تقدمياً ـ رجعية لا تتسق مع قوميتنا النيرة المتحررة المتجددة.

---

(٢٧) تسمى الماركسية أحياناً مذهب الـ Collectivism.

إن اشتراكيتنا العربية، أو قوميتنا الاشتراكية، حديثة في تكوينها[٢٨]، ثم انها وإن كانت لها أهداف واضحة لكنها لن تتردد في تحوير وسائلها، وتجديد الطرق التي تسلكها، كلما وجدت ذلك ضرورياً. ولن يضيرها أبداً هذا التحول الدائم في وسائلها وطرقها ما دامت غاياتها النهائية ـ غايتها في إقامة كيان اقتصادي سليم، تسوده العدالة الاجتماعية الحقيقية، وتتحقق في ظله الفرص المتكافئة لجميع أفراد المجتمع، وينهض جدياً بالانتاج، ويعمل مخلصاً على توزيع الثروات توزيعاً عادلاً ـ ثابتة لا تتغير.

ويجدر بنا أن نعلم أن المبادىء الاشتراكية (في المعنى الأعم) في العالم كله لم تقف عند حدود ثابتة جامدة. ويكفينا أن نتذكر هنا أن في بعض دول الغرب اليوم صراعاً عقائدياً وسياسياً بين فريقين من الاشتراكيين، فريق يريد أن يجدد مفاهيم الاشتراكية في ضوء الأحداث والتجارب وواقع العالم، وفريق يريد أن يجمد على بعض المفاهيم والأسس والوسائل التي وضعت في القرن التاسع عشر، ورافقت الثورة الصناعية، بل كانت رد الفعل الطبيعي لها، دون تحوير أو تبديل[٢٩]. وإننا لواجدون في كتاب **مستقبل الاشتراكية** لِـ كروسلند[٣٠] أنموذجاً للذين يريدون تجديد هذه المفاهيم في انكلترا.

ولقد انعكست هذه الخلافات النظرية حول طبيعة الاشتراكية على الحياة الحزبية في انكلترا. إن الصراع القائم بين جناحَي حزب العمال البريطاني اليوم (وحزب العمال البريطاني هو حزب اشتراكي)، والتحدي الذي تعرضت له زعامة غيتسكل[٣١] ليست إلا نتيجة من نتائج هذا الصراع العقائدي.

وحري بنا، فوق هذا، أن نتذكر أن الاشتراكية في الغرب ـ بشقيها المثالي والمادي ـ قد انبثقت في أوروبا عن أوضاع خاصة كانت نتيجة الثورة الصناعية والتطور الاقتصادي الذي أصاب الأمم الكبرى في القرن التاسع عشر، والذي أدى الى احتكار وسائل الانتاج من قبل طبقة صغيرة معينة من المجتمع هي التي صارت تعرف بـ «طبقة الرأسمالية». ولذلك صار النضال الطبقي سلاح الجماهير السياسي للحصول على حقوق الكادحين، على حين أن الاشتراكية العربية قد انبثقت في جوهرها عن الوعي الاجتماعي للحركة القومية ذاتها.

---

(٢٨) هذا مع التسليم بوجود جذور تاريخية عريقة لهذه الروح الاشتراكية في أمتنا العربية كما سنوضح ذلك بجلاء في البحث الثالث.

(٢٩) نستطيع أن نعد الخلاف بين خروشوف وكتلته ومعارضيه في روسيا وخارجها ـ وخاصة في البانيا والصين ـ بسبب الخلاف حول تفسير بعض المفاهيم الماركسية، فبينما يريد خروشوف التجديد يميل ماو تسي تونغ وشو إن لاي وأنور خوجه إلى الجمود على المعنى الذي استقر في عهد ستالين.

(٣٠) الأستاذ كروسلند Crossland مؤلف وأستاذ انكليزي من حزب العمال البريطاني ألف كتاباً بعنوان *Future of Socialism* درس فيه مستقبل الاشتراكية في انكلترا كما ينادي بها: حزب العمال البريطاني ودعا إلى عدم حتمية التأميم كوسيلة اشتراكية، وقال إن غايات الاشتراكية في انكلترا يمكن ـ في بعض الصناعات ـ تحقيقها بطرق أخرى بصورة أفضل.

(٣١) إن الانتخابات الأخيرة في مناصب حزب العمال البريطاني تشير إلى رجحان كفة مناصري المستر غيتسكل، وهم الذين يسمون بالجناح اليميني في حزب العمال.

فالقومية في شقها السياسي تدعو الى التحرر والتكتل، وهي في ناحيتها الاجتماعية تدعو إلى رفع مستوى جميع الطبقات، وتحقيق العدالة الاجتماعية في ما بينهم. وعلى هذا فنستطيع أن نقول ان الاشتراكية صفة لازمة للقومية العربية ذاتها، بل هي ـ بعبارة أدق ـ القومية ذاتها حين ننظر إليها بوصفها حركة اجتماعية، والقومية ـ كما عرفنا هذا من قبل ـ عقيدة وحركة سياسية اقتصادية اجتماعية. إننا سنزيد هذا المعنى جلاءً، وسنعززه بالأمثلة الموضحة بالبحث المتعلق بخصائص القومية العربية.

١٠ ـ القومية و«الانسانية»

وعلى الرغم من أن القومية العربية تؤمن بالأمة العربية المتميزة بلغتها، وتاريخها، وثقافتها، وخصائصها النفسية والاجتماعية الأساسية الأخرى، فهي ليست دعوة للاستعلاء العنصري على الأمم الأخرى بله السيطرة عليها. إنها تؤمن أن العرب جزء من هذا العالم، وأن من خيرهم التعاون مع شعوب هذه الدنيا كلها على أساس من الاحترام المتقابل، والنفع العام المتبادل، فهي إذن ليست انعزالية بحال من الأحوال.

إننا نعتقد مخلصين أن قوميتنا النيرة المهذبة هي طريقنا الأمثل لـ«الانسانية الرفيعة» بكل معنى معقول مقبول. إن اهتمامنا بالملايين العديدة المنتشرة في قارتين عظيمتين (آسيا وافريقيا)، والعمل على تحريرها في الداخل والخارج من كل قيد، ورفع مستواها المادي والأدبي والروحي، وإقامة كيان عام مشترك لها يحقق لكل فرد من أفرادها الكرامة، والعزة، ويضمن ـ قبل ذلك ـ سبل العيش المرفهة، هو، من دون شك، أجدى طريق عملي في خدمة الانسانية ذاتها.

إن قوميتنا الهادفة إلى هذا كله، والعاملة في مصلحة نحو من مئة مليون من العرب منتشرين في أقطار عديدة متباعدة اليوم، ويعيشون في مستويات متباينة ـ ستتعاون ـ بعد تحرير بنيها وتكتلهم ذاتياً مع شعوب العالم طراً لخيرها وخيرهم، وستجد كل الجد في هذا التعاون الصادق مع كل القوى المخلصة، وكل الشعوب الرامية إلى إقامة سلم عادل يحقق الخير لسكان هذا الكوكب الذي تهدده اليوم الدول الكبرى، ذات الفلسفات والمذاهب الاقتصادية والسياسية المتعارضة، بالفناء المحتم، والهلاك التام.

وجلي من هذا أن ليس في قوميتنا العربية الحرة المتحررة ما هو ضد الشعور الانساني الرفيع، بل إن دعوتها إنسانية بكل معنى صادق للانسانية ذاتها.

على أنه من الحري بنا أن نتنبّه إلى أن دعوتنا، أو على الأدق إيماننا بالانسانية لا علاقة له بالدعوة إلى «العالمية»؛ تلك الدعوة التي تدين بها الشيوعية وتدعو لها. إن في دعوى الشيوعيين للحكومة العالمية ـ بالإضافة إلى استحالة ذلك عملياً كما يرى كثير من المفكرين، وبالإضافة إلى الأسلوب العنيف الذي تريد الشيوعية أن تصطنعه لتحقيق غايتها تلك ـ تخطياً لحقائق التاريخ، ونكراناً لحقيقة أن العالم كان بالأمس، وهو اليوم، وأغلب الظن أنه سيبقى

غداً، مقسّماً إلى أمم لها خصائصها ومميزاتها، ولكل منها طابعها ومصالحها. فالتعاون الجدّي - فيما نرى - إنما يكون على أساس من التسليم بواقع القوميات المختلفة، واحترام لها ولكياناتها. إن هذه النظرة أجدى على العالم من النظر إلى الأفراد - إلى أفراد العالم كلهم - على اعتبار أنهم ينقسمون إلى عمال كادحين مضطهدين، ورأسماليين مستغلين، وأن الصراع بينهما قائم، وأن الحرب الطبقية آتية لا ريب فيها كما تقول الشيوعية. وأكثر من هذا، إن نظرة الشيوعية إلى العالمية لا تحقق سلاماً في هذه المعمورة، ولا تمهد للتعايش السلمي بين الأقوام(٣٢).

ونحن - العرب - في مرحلة كفاحنا الراهن من أجل التحرر، والتكتل، والانبعاث، هل من مصلحتنا القومية في شيء أن نواجه التحديات الكبرى التي تتحدى كياننا بوصفنا أمة منقسمة على نفسها على أساس طبقي يذهب ريحها، ويشيع الذحل القاتل بين بنيها، ويمهد آخر الأمر لقيام استعمار جديد في ديارنا؟

فنحن إذ نؤمن بالانسانية الشاملة، وندعو إلى التعاون الدولي الصميم بين أمم هذا العالم، نرى أن قوميتنا هي سبيلنا إلى ولوج باب الإنسانية الرحيبة، وهي محجّتنا الغراء للتعاون العالمي الصادق. ولن تخدعنا ما في صيحات «دعاة العالمية»، ودعاة «السلام المكذوب» من بريق فنطرق دروباً قد لا يؤمّن معها العثار.

وأكثر من ذلك، وعلى الرغم مما نجده لدى فريق من دعاة العالمية والإنسانية من مُثل عليا، وتشوُّف إلى الكمال، فإن فريقاً آخر من هؤلاء الدعاة قد اتخذوا منها وسيلة للهرب من الواقع، وهم في ولوجها ينحون منحىً أفلاطونياً نظرياً سلبياً ليتخلصوا مما في الوطنية والقومية من إيجابية وواقعية وغيرية تدعو إلى التضحية العاجلة بصورة واضحة وصريحة. ولقد أصاب جان جاك روسو حين صوّر أمثال هؤلاء بقوله: «إن بعض الناس يحبون أبناء الصين لكي يتخلصوا من الواجبات الفعلية التي تترتب عليهم من أجل حب أبناء وطنهم الأقربين. . .»

وقد يكون من الطريف أن ننقل هنا ما كان يجيب به ثيودور روزفلت الذين لا يفرّقون بين وطنهم والأوطان الأخرى بقوله: «نعم قد يأتي عهد - في أغوار عصور المستقبل البعيد - تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها، كما أنه قد يأتي عهد يندثر فيه نظام الأسرة في الزواج. غير أنه يجب ان نعرف جيداً أن الرجل الذي لا يفرّق بين وطنه وسائر الأوطان - في المجتمع الذي نعيش فيه الآن - يكون عنصراً مضراً، كالرجل الذي لا يفرّق بين زوجته وسائر النساء».

ويطيب لي أن أختتم هذا الموضوع بالعبارات البليغة المنقولة من فصل من كتاب واجبات الإنسان الذي ألفه جوسيبي ماتزيني(٣٣) رسول الوحدة الإيطالية وكان يخاطب فيه عمال ايطاليا: «أحبوا وطنكم؛ وطننا هو بيتنا، البيت الذي أعطانا الله، وضعنا فيه عائلة كبيرة تحبنا ونحبها

---

(٣٢) لا شك أن في دعوة خروشوف إلى التعايش السلمي مروق عن المذهب الشيوعي العقائدي الذي يؤمن بحتمية الصراع الطبقي الدموي الذي لا بد أن يؤدي إلى الحرب لتمكين عمال العالم من السيطرة التامة وإقامة الحكومة العالمية، ثم إلغاء الحكومة لتحقيق الشيوعية كاملة في العالم كله.

(٣٣) كان ماتزيني (Mazzini) قد وضع كتابه عام ١٨٥٨.

أيضاً، عائلة تعطف علينا أرق العطف، ونفهمها أسرع مما نفهم الآخرين، عائلة معدة لميدان خاص من ميادين النشاط الانساني لأنها مركزة في مكان معينٍ ومكونة من طبيعة متجانسة العناصر والأجزاء. وطننا هو مصنعنا المشترك، فيه يصدر محصول وطننا لخير العالم كله، وفيه تجتمع أدوات العمل التي نجيد استعمالها. إننا لا نستطيع أن نرفضها دون أن نتمرد على خطة الإله القدير وننتقص من قوّتنا.

إنّا نعمل من أجل الإنسانية حين نعمل لوطننا على المبدأ القويم... وطننا هو نقطة الارتكاز في الرافعة التي يجب أن نستعملها للخير العام. فإذا تركنا نقطة الارتكاز فإنّا نجازف في جعل أنفسنا غير صالحين، لا للإنسانية فحسب، ولكن لوطننا ذاته.

قبل أن يشترك الناس مع الأقوام التي تتألف منها الإنسانية، يجب أن يكون لهم وجود قومي. إذ لا شركة حقيقية إلا بين الأكفاء. ولا يكون لنا وجود جماعي معترف به إلا بواسطة وطننا»[٣٤].

١١ ـ القومية و«الجمود»

يتهم فريق من المفكرين القومية بالجمود، حتى انهم لا يتصورون القومية إلا تداعت إلى أذهانهم «الرجعية» أو «الجمود». وفي الحقيقة، فإن القومية العربية تملك، إلى جانب طابعها العقائدي الثابت، روحها الحركية المتجددة، وبعبارة أدق وأوضح ليست القومية العربية حالة ثابتة، وليست جموداً على أوضاع راهنة، كما أنها ليست ـ كما يزعم خصومها ـ رجوعاً إلى الوراء. إنها قوة «دينامية» تجديدية تعمل بكل قواها على تحقيق أهدافها باصطناع كل وسيلة مجدية فعالة. وأكثر من هذا إن الذي يريد أن يحافظ على الأوضاع الراهنة في البلدان العربية ليس من القومية العربية ـ كما نفهمها ونتدارسها ـ في شيء، بل إنه خصم من خصوم الأمة العربية الطامحة في الانبعاث والتحرر، والتجدد.

إن القومية العربية، في حركتها الدائمة، تسعى إلى تحطيم كل القوى والتيارات والعقبات المعارضة لتطورها الثوري في النواحي الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية، وفي كل النواحي العديدة الأخرى. وهي لذلك، حتماً وبالضرورة، ضد الاقطاع، وضدّ الاستغلال، وضد الطائفية، وضد العنصرية، وضد الاقليمية الضيقة، وضد الطبقية، كما أنها، من دون شك، ضد الجهل، والمرض، والفقر، والتسيب، والتعصب الأعمى. وفوق هذا كله، إنها ضد كل الفكر والعقائد التي تريد أن تجر الأمة العربية إلى نظريات مستوردة توحي بها فلسفات غريبة عنا.

إن القومية العربية تؤمن بذاتية الأمة العربية الخاصة المتميزة، وتجد في التعبيز عن كل ما يحقق تلك الذاتية ويجليها، كما أنها تصطنع كل ما يمكنها من السير قدماً في ركب العالم المتحرر لإقامة كيان أفضل وأكمل وأعدل من أوضاعها الراهنة.

وكم يجدر بنا أن نتذكر، بهذا الصدد، أن «القومية» ـ كما نفهمها اليوم ونبحث فيها ـ

---

(٣٤) إن النص منقول من كتاب: أديب منصور، وطنيون وأوطان (بيروت: دار القلم، ١٩٥٢)، ص ٨٣.

هي ترجمة لمصطلح ناشيناليزم (Nationalism) في اللغات الأجنبية. وأن في هـذا «ism» الذي تنتهي به الكلمة الأجنبية، بالإضافة إلى النسبة العقائدية، معنى الحركة وقوة الاندفاع. فهي لهـذا المعنى كـالاشـتراكية (Socialism) وكـالشيـوعيـة (Communism) وكـالفـوضـويـة (Anarchism)، وككل المصطلحات الأجنبية المنتهية بهذه الحروف الثلاثة ism التي تدل على التجديد والتفاعل الحركي، كما تدل، في الوقت ذاته، على العقائدية الثابتة.

ثم ان إيمان القومية العربية بماضي الأمة العربية، وتقديرها بطولاتها وإنجازاتها على مر العصور، لا يعني بحال من الأحوال الرجوع إلى عهود سحيقة خلت، بل إنها تريد أن تتخذ من ذلك الماضي، ومن تلك المآثر الخالدة، دليلاً على قدرتها على الإبداع والتجديد في إقامة حاضرها، والتمهيد لإقامة مستقبلها. إن القومية العربية تتخذ من تلك الذكريات والمفاخر مهاميز تحرك الأمة العربية دوماً إلى الأمام لبلوغ الأماني الجسام التي تضطرم في صدور الواعين من بنيها.

إن القومية العربية تؤمن بأن دولاب عجلة الزمن سائر، وعليها أن تواكبه في هذا المسير إن لم يكن في قدرتها مسابقته والتفوق عليه. فهي، إذن، في حركة دائمة، وفعالية متجددة. ولكنها تريد أن تسير مجدة في الطريق الذي تختاره هي بنفسها راغبة فيه، لا الطريق الذي يريد أن يفرضه هذا الفريق أو ذاك عليها بوسيلة أو بأخرى.

وجلي من هذا أن وسم القومية بالجمود اتهام باطل في جملته وتفصيله، لأنها حركة تجديدية تقدمية.

١٢ ـ القومية و«السياسة القومية»

وقد يكون من المفيد أن نختتم هـذا الجـزء من هـذا البحث، المتعلق بالمسائل والمصطلحات التي تتداخل مع القومية فتعمل على إشاعة المفاهيم الخاطئة حول القومية ـ بذكر الفرق بين القومية، «والسياسة القومية». فلقد التبس هذا الأمر ـ في ما يبدو ـ على كثير من الناس، ولم يقدروا على التمييز بين القومية ـ وهي كما عرفنا من قبل عقيدة وحركة ـ وبين السياسة لكل دولة من الدول، وهي التي قد تسمّى أحياناً كثيرة السياسة القومية. إن القومية بوصفها عقيدة مستقرة لا بد أن تكون ثابتة الأسس، واضحة المعالم، غير قابلة للتغيير السريع. فليس باستطاعة أية دولة أن تغير قوميتها كما تغير سياستها. حقيقة أن بعض المجتمعات، قد اضطرت في ما مضى، إلى تغيير قوميتها، وذلك حين نسيت لغتها الأصلية، واتخذت لغة جديدة لها، وحين نسيت تاريخها، واستبدلت مقومات حضارتها ومعايير ثقافتها بغيرها. ولكن ذلك لم يقع في العادة إلا في حالات نادرة، واستغرق فترات طويلة من الزمن، قد تبلغ أجيالاً عديدة بل قروناً كثيرة. ولكن سياسة كل دولة ـ بطبيعة الحال ـ قابلة للتغيير السريع ـ نسبياً ـ وفقاً لمصلحتها المتغيرة، ومسايرة للظروف المتجددة المحيطة بها. وهذا هو الفرق بين القومية الأصلية الثابتة، والسياسة المتجددة المتطورة المتغيرة.

وقد يسعفنا في توضيح هذا الأمر أن نقول ان السياسة في جوهرها «رأي»، والرأي،

كما هو معلوم، عرضة للتغيير والتبدل، ولكن القومية «عقيدة»، والأصل في العقائد الثبات والاستقرار. ونخلص من هذا كله الى القول بأن أية دولة من الدول حين تؤكد قوميتها، وتعلن التزامها بمقتضيات تلك القومية، يجب أن لا يعدّ ذلك مجرد تصريح يبينّ نوع السياسة التي تنتهجها تلك الدولة. إن التفسير الأدق أن ذلك تقرير لواقعها، واقعها الذي لا تملك تغييره بتغير الظروف العارضة، والأحداث المتجددة.

وطبيعي أن هذا القول لا يعني أن الدولة القومية لا تُجري ـ بين الحين والآخر ـ تغييراً في مخططاتها السياسية، والطرق التي تسلكها لبلوغ أهدافها السياسية، ولكن هذا لا يعني تغييراً في قوميتها الثابتة ذاتها. إنه تحوير في الوسيلة المصطنعة، وتغيير في الطريق المسلوك لبلوغ الغايات المحددة المستقرة.

ويحسن بنا ـ في هذا الصدد أيضاً ـ أن نتبين الفرق بين حقيقة القومية الثابتة لجماعة من الجماعات، وبين اكتشاف تلك الحقيقة في فترة من الزمن، أو بروزها متجلية في ظرف من الظروف. إن كثيراً من الشعوب والأقوام قد جهلت قوميتها حيناً من الدهر حتى إذا ما تهيأت لها ظروف مؤاتية بصّرتها بحقيقتها الكامنة في أعماق وجدانها، وأظهرتها على أمور كانت خافية عليها، وأيقظتها من غفلة أو سبات كان قد استولى عليها، أدركت واقعها على الوجه الصحيح، وبرزت معالم قوميتها فعالة، وأعلنت تلك القومية باعتبارها الصفة الأصلية الثابتة لمجتمعها. إن هذا الإعلان ـ في حد ذاته ـ لا يعني انتهاج سياسة جديدة قد تتغير. إنه يعني ـ في الأدق ـ أن السياسة العامة الجديدة لتلك الدولة ستكون وفاقاً لمتطلبات حقيقتها القومية هذه. ومعنى هذا أن التغير في الأسلوب والعمل السياسي لا يعني أكثر من تعبير عن حقيقة ثابتة خفيت على المجتمع حيناً، وحين ظهرت لم يعد في مقدور ذلك المجتمع أن يتجاهلها. إن تلك الحقيقة ستفرض نفسها ـ بطريقة أو بأخرى ـ على المجتمع ذاته، وإنها ستلزم قادته وساسته وحكامه بالسير في الطريق الذي تومىء إليه حقيقة قوميته هذه.

ولنا في بروسيا في القرن الماضي مثال حسن يوضح هذا الأمر ويجليه. لقد كانت بروسيا دولة مستقلة، وكان البروسيون يعتبرون أنفسهم أمة خاصة، لهم قوميتهم المتميزة عن بقية العالم، وبقية الدول والدويلات والإمارات والمدن الحرة والدوقيات التي كان أهلوها يتكلمون الألمانية، ثم جاءت ظروف مكّنت بروسيا من أن تشعر بحقيقة وجودها وهي أنها جزء من أمة ألمانية كبيرة، وأن البروسيين، والبافاريين، والسكسونيين وأهالي الراين، وكل الإمارات والدويلات والمدن التي كان أهلوها يتكلمون الألمانية أجزاء من أمة ألمانية واحدة لا بد لها ـ لتحقيق قوميتها على الوجه الأمثل ـ أن تتوحد. وهكذا أعلنت بروسيا أنها ألمانية، وليست بروسية فحسب، وأعلنت أن سياستها قائمة على حقيقة قوميتها الألمانية هذه. ولم يمضِ إلا نيف ونصف قرن حتى استطاعت القومية الألمانية أن تثبت وجودها، وتقوم الدولة الألمانية حقيقة قائمة لتختفي في ظلها القومية البروسية، والقومية البافارية، وكل القوميات الألمانية المحلية الأخرى. ولم يعد العالم يسمع شيئاً عن بروسيا الدولة المتميزة، ولا عن الأمة البروسية، إذ حلّت محل ذلك الدولة الألمانية، والأمة الألمانية.

كذلك كان الحال بالنسبة إلى سردينيا والقومية السردينية. ولكن حين تمّت الوحدة الإيطالية ذابت سردينيا في هذا الكيان الإيطالي الكبير ولم يثنِ سردينيا عن أهدافها في القومية الايطالية تنكّر البعض لها، ونكرانهم عليها أن تكون ايطالية وهي جزيرة محاطة بالماء من جميع أطرافها. على أن الأحداث التي توالت على ايطاليا في القرن التاسع عشر أيدت حقيقة كون سردينيا جزءاً من ايطاليا، وأن السردينيين ليسوا إلا جزءاً من الأمة الايطالية الواحدة التي تجمعت من دول وإمارات ومقاطعات وجمهوريات عديدة.

ولنا اليوم في مصر خير مثال يوضح هذا الأمر. إن عوامل عديدة قد صرفت المصريين، حيناً من الدهر عن حقيقة عروبتهم، وأكدت الصفة الاقليمية المتميزة لمصر ذاتها، حتى إذا ما زالت تلك العوامل، أو على الأدقّ خفّ تأثيرها، تيقظت مصر الى حقيقة وجودها، وعبّرت عن هذه الحقيقة تعبيراً واضحاً حين أعلنت، في دستور عام ١٩٥٦ «إن الشعب المصري جزء من الأمة العربية». وأفصح عن نفسه بقوله: «نحن الشعب المصري الذي يشعر بوجوده متفاعلاً في الكيان العربي الكبير، ويقدر مسؤولياته والتزاماته حيال النضال العربي المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها»[٣٥].

إن هذا الإعلان ليس سياسة قابلة للتغير بتغير الظروف والأحوال، إنه تعبير عن حقيقة خالدة أصيلة بقيت خافية، أو مندثرة أجيالاً، ثم برزت وتجلت حين تهيأت الظروف لبروزها وتجلّيها. وعلى هذا، فمن الخطأ الفاحش أن نتصور أن الاعلان عن عروبة مصر سياسة جديدة اتخذتها مصر لتحقيق أغراض سياسية أو اقتصادية أو اقليمية معينة بحيث انه إذا تم لها ما أرادت عادت فأعلنت من جديد عن مصريتها أو اقليميتها.

وأكثر من ذلك، ليس إعلان حقيقة عروبة مصر أثراً من آثار اتحاد مصر وسورية في جمهورية عربية متحدة بحيث يتحتم أن تعود مصر إلى سابق اقليميتها بعد انفصام عرى تلك الوحدة مع سوريا، كما يمني أعداء القومية العربية في الداخل والخارج أنفسهم بذلك. إن القومية العربية هي حقيقة مصر، وهي حقيقة أصيلة غير مقترنة بسياسة عابرة أو ظرف طارىء. إن هذه الجمهورية العربية المتحدة ستبقى «رافعة أعلامها»، «مرددة نشيدها»، متنادية بشعاراتها، معبرة عن حقيقة شعب مصر، وان في هذا لسلاحاً خطيراً لن يستهين به إلا من يجهل طبيعة الشعوب والأقوام. وإن هذا السلاح الفعال بالذات سيحقق للقومية العربية النصر الذي ترجوه ولو بعد حين.

وكم كان يتمنى أعداء القومية لو تنكست أعلام العروبة هنا، وكَم كانوا يتوقون لو أن شعاراتها قد استُبدلت بشعارات أخرى. لو تحقق ذلك ـ ولحسن الحظ أنه لم يتحقق، بل لم يكن من المعقول أن يتحقق ـ لظفرت الردة القومية بأعظم نصر كان يتوق أعداء العروبة، في كل مكان، إلى الحصول عليه.

إن لكثير من الشعارات والتسميات أثراً عظيماً قد لا يحسه الفرد الاعتيادي لأول وهلة،

---

(٣٥) وردت هذه العبارة في مقدمة الدستور.

ولكنها تعمل في النفوس عملاً كبيراً غير محسوس. وإني لأعتقد جازماً أن في التزام حكومة الانفصال في سوريا العروبة في عنوان جمهوريتها (الجمهورية العربية السورية) بذور تحطيم الانفصال ذاته، وبرهان بطلانه الملاصق له، وفيه تأكيد للعروبة الجامعة الشاملة التي تصرخ عالياً: إذن فعلامَ الانفصال؟!

وسيقول القائل، في سوريا قبل غيرها: إذا كانت هذه الجمهورية السورية عربية ـ وسورية عربية لا شك في عروبتها ـ فكيف يجوز لحكومتها أن تسير في الخط المعادي للعروبة، الخط السائر في معالم التفتيت، أو تثبيت الحدود المصطنعة... وإذا قيل ان الانفصال لم يُرَدْ به تثبيت الاقليمية الضيقة التي ينكرها بحق معظم السوريين، فستكون الأسئلة الآتية حتمية الورود! إذن مع من ستتكتل سوريا إذا هي أبطلت تكتلها مع الجمهورية العربية المتحدة؟ وهل سيرضى السوريون، وهل سيرضى القوميون العرب خارج سوريا بتكتل لا يقوم على أساس من العروبة الصادقة الهادفة إلى تحرير العرب من كل قيد خارجي أو داخلي، العروبة الرامية إلى تحقيق العدالة الاجتماعية للأفراد جميعاً، العروبة التي تريد أن تحقق للعرب حيثما يكونون الكرامة، العروبة التي تقدر على مواجهة التحديات الكبرى كالاستعمار والشيوعية والصهيونية؟ وهل لعاقل، وهل لعربي عاقل، هل لإنسان عاقل أن يتصور أن العروبة تقدر أن تسير في تحقيق أهدافها العظيمة هذه دون الجمهورية العربية المتحدة؟! إن هذه التساؤلات الكبرى تومىء الى ما تفرضه حتمية التاريخ وتشير إليه عبره[٣٦]...

وقد يكون من المفيد ـ في هذه المناسبة ـ أن أقتبس هنا بعض ما قاله المؤرخ الانكليزي المعاصر الكبير أرنولد توينبي حول الوحدة العربية. فقد تساءل هذا المفكر الكبير: «ما مصير الوحدة العربية بعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة؟» ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله:

«إن هذه الوحدة تبدو في هذه ـ اللحظات ـ بعيدة المنال تماماً كما كانت الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية تبدو في أعقاب انهيار الثورة الأوروبية عام ١٨٤٨...» وبعد استعراض لحوادث التاريخ المعاصر قال: «ولا يستطيع أحد ـ حتى أشد أعداء الوحدة العربية ـ أن ينكر أن الوحدة ستتم في خلال الـ ١٢ سنة أو ١٣ سنة القادمة. فماذا يمكن أن يكون هناك من العقبات أكثر من العقبات التي تغلبت عليها ايطاليا في النهاية خلال القرن التاسع عشر»[٣٧]...

---

(٣٦) ليس في قولنا هذا ما ينفي احتمال وجود مبررات لبعض ما كان يتشكى منه فريق من ابناء سوريا، وليس فيه ما ينفي وقوع بعض الأخطاء، ولكن المصلحة القومية العليا ـ للأمة العربية التي اعتبرت قيام الجمهورية العربية بين الاقليمين الشمالي والجنوبي أعظم انجازات القومية العربية في العصر الحديث، وأكبر خطوة خطتها الأمة العربية للسير نحو أهدافها ـ كانت تقضي بأن يكون حل كل خلاف في إطار من الوحدة ذاتها، وضمن القيم الأساسية للقومية العربية التي يجب أن لا يتخلى العرب عنها ولو لحظة واحدة من الزمن مهما كانت الأسباب.

(٣٧) انظر مقاله المنشور في جريدة الأهرام في العدد المؤرخ ١٩٦٢/١/١٧ تحت عنوان: «الوحدة العربية ومستقبلها». وكان هذا المؤرخ الكبير قد كتب أخيراً مقالين في جريدة الأوبزيرفر البريطانية الأسبوعية واشترت الأهرام حق نشرهما باللغة العربية.